

السيد

تأملات

regret that readers of books
allow themselves to tear out
pages for e.g. p. 65 66 are
missing - why not allow them

to photocopy them

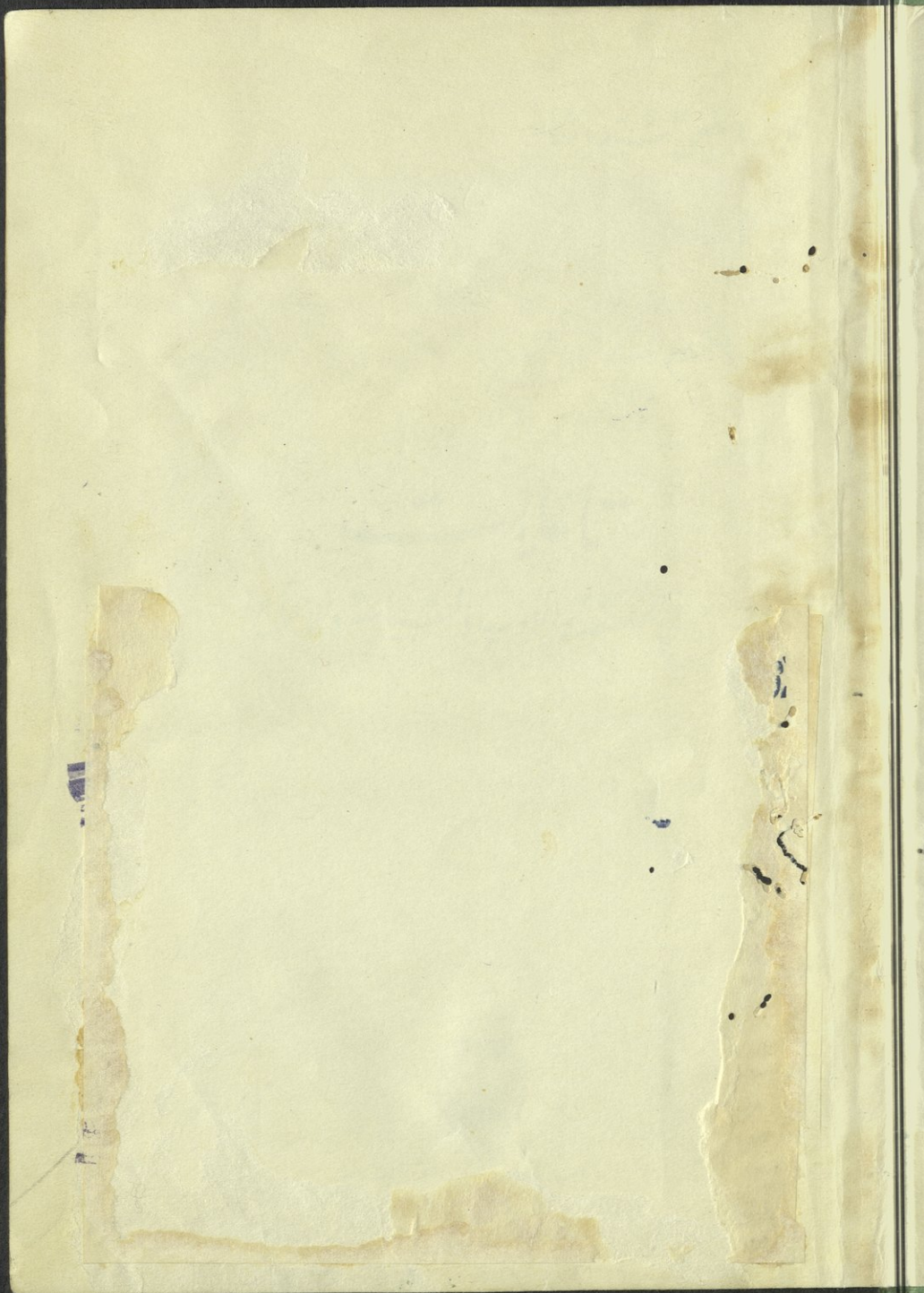
instead of **DATE DUE**

from reading them

This was a Lebanese photocopy
you stupid fool

193

تجلبه
صالح الدقر
بيروت - الزرعة



892.78
11A
احمد لطفي السيد باشا

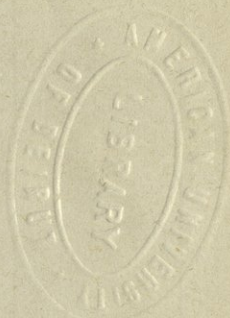
892.78
S275tmA
C.1

تأملات
في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع



دار المعارف للطباعة والنشر

١٩١



كتاب
تاريخ

١٩١

مقدمة

من مميزات العبقرية الصحيحة ، وأعنى بها العبقرية الأثنية ، لا العبقرية الاصطناعية التى تتولد بكسب المعارف أو الفنون ، أن تسبق بأثارها العصر الذى تنشأ فيه . فإذا كانت العبقرية فى إهاب شاعر ، سبق العصر بأخيلته وسبحاته الشعرية ، وإذا كانت فى إهاب فنان ، سبق العصر بما يبدع من الظلال والألوان والتعبيرات التى يفرغها فيما يخرج منه صورة أو تمثال . وإذا كانت فى إهاب مفكر ، سبق عصره بالتفرد فى الحس بما سوف تتمخض عنه النظامات وأوجه التقدم التى تسير فيها خطأ الجماعات ، بحيث يرى واقعاً بالفعل ، ما يلوح لغيره من الناس انه مستحيل الوقوع . أما إذا كانت فى إهاب فيلسوف ، فإنها ترحل به عن عالم الناس إلى عالم هوله وحده ، فتخرج آثاره على اكتمال الفكرة فيها تغالب نزع الموت فى يد الجماهير ، ولا تترى وتؤتى أكملها حتى يكتمل الوعى الجماعى فيدرك ما فيها من جمال أو حق أو مصدق . وأستاذنا الكبير صاحب هذه التأملات عبقرى أثين بطبعه . ظهرت أصالة عبقريته فى كل أطوار حياته العامة . فظهرت فى أسلوبه كما ظهرت فى نواحي تفكيره وفى اتساق فكرته ورتابة منطقته ووضوح غاياته وجلاء مراميه . ففما نشرنا له من « المنتخب » قبل عشر سنوات وما نشرنا

منها في هذا العام ، وما ننشر اليوم في « تأملات » دليل باسم واضح القسمات على أنه سبق عصره بمراحل بعيدة المدى قصية الغايات .

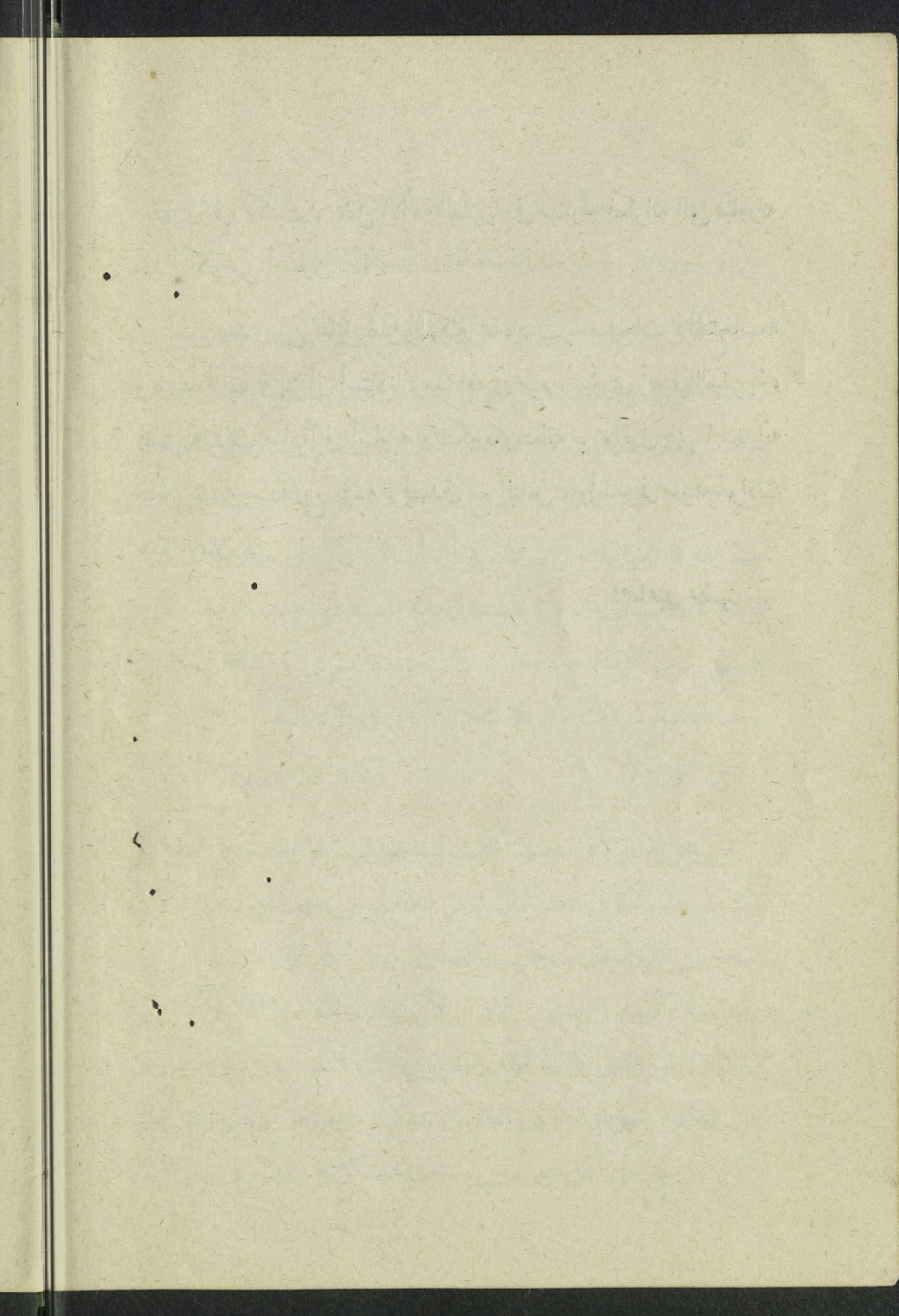
ففي العصر الذي ارتمت فيه السياسة المصرية في أحضان فرنسا وتركيا ، نستجد الأولى ونستعديها على المجلّات مستغلين ما بينهما من حزازات ومنافسة وتعلق بخيط العنكبوت من علاقتنا بالعثمانيين مستغلين سيادتهم الاسمية على مصر ، نادى بالاستقلال ، محييا بذلك الفكرة الوطنية الصميّة التي قامت عليها الحركة العربية . وإني لأذكر أن أستاذنا ذكر في مقال له أن مصر تطلب « الاستقلال التام » فاستعدي عليه السيد علي يوسف صاحب المؤيد ورئيس حزب الإصلاح ، وهو إذ ذاك حزب السراي ، النيابة لتجره إلى موقف الاتهام . ذلك بأن الاستقلال التام في ذلك العصر ، كان جريمة تستحق الجزاء .

قال بحرية المرأة في عصر أظلمت فيه جوانب الحرية ، ودعا الطلبة إلى الاشتغال بالسياسة في عصر كان فصل الطالب من معهده أهون على أصحاب السلطة من قلامة ظفر . وطالب بالدستور وبشر بحرية الفرد وأنحى على تدخل الحكومة في شؤون الأفراد لأن ذلك وجه من الاشتراكية لا يتأتى لا تلامم الطور الذي كانت تجتازه مصر في ذلك العصر ، وآمن بالتطور في زمان دعا فيه بعض الزعماء إلى الطفرة ، فكأنه بعبقريته الأصيلية قد أدرك أكثر ما خفي على أهل عصره من مستقبل هذه الأمة ، ولا تزال حتى اليوم

٥
نستقرئ فيما كتب ، تَمَقُّلُ الأُمة المصرية في مدارج أفكاره التي ساورتها
منذ أكثر من أربعين سنة .

ليس عندي من تعليل لهذا والكثير مما فاضت به صفحات « المنتخب »
و « التأملات » إلا أن أستاذنا ، مد الله في عمره ، عبقرى أصيل العبقرية ،
فظهر إثر ذلك صادقاً في أسلوبه وتفكيره ومنطقه . وأقول على الجملة إنه
عاش حياته صادقاً مع نفسه ، فصدق مع الناس ، وأيدته في صدقه حوادث
هذا الزمان .

إسماعيل مظهر



القدوة الحسنى

الأستاذ عبد العزيز بك فرهمي

قد يجد المرء ذو الطعم على نفسه غضاضة أن يعلن عن صديقه فضائله لشخصيته أو محامده العامة، لأن هذا يمسّه عن قرب وينعكس لمعانه عليه على كل حال. فأوشك بالكاتب عن ذاته أو صديقه، أن يبتسم له القارىء فيقول: مباح نفسه يقرئك السلام.

غير أن للواجب مآرق تلجىء إليها ضرورة القيام به وعلى الصحفي أن لا يدع صغيرة ولا كبيرة من الحوادث النافعة في التنبيه على خلق كريم أو الدالة على مشاعر عاليات ليمّ للناس القدوة الحسنة، وليكون آية للأعقاب يهتدون بها وتسكن أنفسهم إلى إثارة المنافع العمومية على المنافع الشخصية. عليها جميعاً، حتى على الصحة وهي أنفس متاع في الحياة. بهذه المثابة يجب علينا الحرص في مسألة الأستاذ عبد العزيز، تلك المسألة التي اشتغل بها الرأي العام نحو أسبوع.

يسرنا كما يسر صديقنا عبد العزيز بك وكل مصرى محب لبلاده، أن يكون الرأي العام في بلادنا يقظاً ملتفتاً لجميع الحوادث مقدراً رجاله الأمانة قدرهم يطالبهم مطالبة رب الدين أن أتوا بلادكم حقها عليكم وافنوا في خدمة الجمعية التي ولدتم والتي عليكم اعتمادها في تحقيق الآمال. ويعجبنا أن

يكون للناس على خدمة الأمة من الدالة ما يبيح لهم المداخلة في شئونهم التي هي أشبه بالشئون الخاصة منها بالأعمال العمومية . اللهم لك الحمد والمنة على أن جعلتنا نسمع بأذاننا ونرى بأعيننا أن يقف الرأي العام لعبد العزيز بك موقف الذي يعتقد أن هذا الرجل الحر ليس له التصرف في نفسه وملكوته ، بل هي وقف على خدمة الأمة فيما تشاء الأمة . غبطة تسيل لها الدموع الباردة فرحاً بأن زمن الهدم قد تولى — لا رده الله — وقد جاء بدله زمان بناء الرجال .

ليست المسألة في ذاتها من المسائل السياسية الكبرى ولا من العقد الاجتماعية حتى كنت أتوقع أن تردنا من كل ناحية كتب الاستفهام عما تم فيها ، بل كتب الاعتراض علينا في أننا لم نقيم رأينا في المسألة كما نصدع به في كل مسألة سواها . ليست المسألة كذلك ولكنها بسيطة في حد ذاتها . لم يعقدها إلا مركز الأستاذ عبد العزيز وثقة الأمة في نائبها المحترم . طلبت إليه الحكومة أن يقبل القضاء في محكمة الاستئناف وإني شاهد رؤية وسماع على أن الحكومة لم يكن لها في ذلك إلا قصد حسن وخدمة للقضاء ، أشهد بذلك . ولكنني أشهد معه بأننا في الجمعية التشريعية في غاية الحاجة إلى عبد العزيز بك وزملائه كبار العقول أشداء القلوب الذين يفرطون في كل شيء إلا في حق الأمة مهما صغر قدره وقلت قيمته . وعلى هذا الاعتبار جرى الرأي العام في تقدير المسألة حتى قال لي يوماً كبير الخريين لمناسبة هذه المسألة ، تلك جناية على الجمعية تبوء أنت بشر من المسؤولية عليها !

وإذا كان هذا هو رأى سعد باشا ، فما عسى أن يكون رأى الباقين وماذا
عساك تسأل عما ورد علينا من الاحتجاجات من قبل الشبيبة المتعلمة في
القاهرة ومن أعماق القرى والكفور .

إن عبد العزيز بك بتواضعه المشهور ، لعله لم يقدر ضرورة بقائه في
الجمعية بالقياس الذي قدره به جميع أعضائها والرأى العام . إنه رجل قانون
طلب إليه خدمة القانون بمحكمة الاستئناف ، فكان حاله كالجندى طلب
منه أن يخدم سلاحه محل جندي آخر في ميدان الجهاد . فما يأخذه زهو
الشهرة عن الخدمة الهادئة بين جدران قاعات الجلسات ولا يظنه عاملاً
لإقامة الحق ، أقل منه شرفاً حين يعمل لتأييد الحق والعدل بصورة أخرى
في الجمعية التشريعية . وأنا ضمن أن هذا الرجل العالم لم تتجلب أمامه تلك
الخيالات المائعة حين يظفر بالوزارة أو حين يسمع صوته الصريح لتحقيق
ما يراه لمصلحة البلاد . شغل بشغل وخدمة للحق هنا وهناك . خدمة للأمة
في الحالين . فما يكون من التفضيل في نظره إلا اعتبارات شخصية .
وليس لديه من طمع إلا العفاف بالكفاف . فلا مفضل إلا ما يتفق مع
مزاجه ويتمشى مع حال صحته . ولقد علم أصحابه أن طبيبه قال غير مرة
بعدم استمراره في الجمعية التشريعية وهو الدكتور طلعت بك . قالها وقوله
حجة . فكان ذلك هو المرجح عند الأستاذ عبد العزيز وأخصائه . فلما
رأى أن الأمة التي أنابته تحرص على نيابته ، وأصحابه في المجلس يحرصون
على الاحتفاظ به بينهم ، قال وصحى أيضاً فداء .

فليعش هذا المثل الصالح ولتسلم له محنته وليبق له فداؤه . فإنه قد ضرب
لنا مثلاً في التضحية كما ضرب لنا صاحب العطوفة شيخ ساستنا على
الإطلاق مصطفى فهمي باشا، مثلاً للتضحية والاحتفاظ بالكرامة والاستقلال .
(وما الأمة إلا أمثلة مضروبة من النبلاء ، واقتداء صالح من جانب الأبناء .
بذلك تتم التقاليد . وعلى هذا تبني قوة الشعوب .)

فنحن نهنيء صديقنا بثقة الأمة وهي أكبر ما يتمنى الرجل من سعادات
الحياة . ونهنيء الأمة بأن فيها من أبنائها من يصلحون في أخلاقهم العامة
وكفاءتهم ، ليكونوا طلائع الرقي المنتظر والفلاح القريب .

٢

وقفت السيدة بهية هانم برهان على الجمعية الخيرية الإسلامية للتعليم
سرايها الفسيحة الجميلة بشارع درب الجمايز لتكون معهداً علمياً .
وأجرت عليها من ريع وقفها ستائة جنيه سنوياً خلافاً لريع البيوت،
والخوانيت الملحقة بالسراي مما يبلغ ريعه مائتي جنيه في العام .
وقفت كل ذلك وفقاً نهائياً خالياً من الشروط العشرة . وقفت كل ذلك
وفقاً منجزاً لا معلقاً على انقضاء الذرية ولا على أية حادثة مستقبلية . بل
السراي والريع صارا من الآن للجمعية الخيرية .

فما أجدر هذا العمل الصالح بأن يكون للأغنياء والموسرين القدوة الحسنى من وضع الشيء في محله ، ودليلاً على الإحسان في الإحسان .

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين حق على الأغنياء والموسرين . كانت ولا تزال ، وكذلك تبقى جارية ما دامت في الإنسان عاطفة الحنان الى الضعيف وإلى الفقير ، وما دام الشوق إلى منفعة الوطن يدفع الناس إلى التضحيات المالية وغير المالية . غير إن الصدقة تعظم بكبر قيمتها ومقدار الحاجة إليها وعلى نسبة ما تنتج من الخير العام للأمة) ومن هذا النوع مبرة الأميرة الكبيرة فاطمة هانم افندى والحسنة الخالدة الذكر السيدة بهية هانم برهان فإنهما عرفتا حقيقة كيف يقرض الله قرصاً حسناً ليضاعفه لهما أضعافاً مضاعفة ، وعلى أى نوع تقدمان لمصر أكبر ما يمكن من المنافع .

زهنت الجمعية الخيرية الإسلامية بالعمل المتواصل في السكون والعزلة عن كل جلبة وضوضاء على أنها أمتن الجمعيات الخيرية نظاماً وأكبرهن فطنة وأوسعهن إدارة للتعليم . إنها أخذت على عاتقها تعليم الفقراء منذ قبضت الحكومة يدها عن تعليمهم وقبل أن يوجد في البلاد جمعيات أخرى تهتم بأمور الفقير ، وقبل أن يكون مجالس المديرية عناية بأمر التعليم . في مدارس الجمعية الخيرية أكثر من ستة آلاف تلميذ يتعاملون بعضهم على نفقة أوليائهم ومن ليس له ولي قادر على تعليمه ، فوليه الجمعية تعلمه على نفقتها . ذلك عملها في التعليم . وأما إعانة الفقراء ورعايتهم بالصدقة الخفية والرعاية الصامتة غير المتبوعة

بالمن فذلك يعرفه الذين حضرتهم معونة الجمعية في وقت الضيق والذين جاءتهم
رسلا تخلصهم من حيرة الموقف من حيث لا يحتسبون .

لا شك في ان هذه الاعبارات هي التي حركت عواطف السيدة بهية
هانم الشريفة إلى توسيط الجمعية في إيصال برها للفقراء والمساكين . فاختصتها
بهذه الهبة العظمى التي لا نسمع بمثلا في بلادنا ، وما أجمل أثر البر في نفس
فاعله وفي نفس المسدى إليه . ولو رأيت وفد الجمعية الخيرية الإسلامية يتقدمه
دولة رئيسها الأمير الجليل حسين كامل باشا ووراءهم أبناء الجمعية الفقراء
يحيون باسم الإنسانية تلك السيدة المحسنة في شخص وكيلها الرجل النبيل
أمين بك يحيى ، وينشد التلاميذ نشيدهم لتجديد هذا العمل الصالح  ووددت
أن تكون لك كنوز الأرض تهبها لتعليم الفقراء ، ولا فعلت نفسك بأن
في الكرم بسالة تأخذ النفوس بأكبر مما تأخذها بسالة أبطال الحروب وان
له جلالا فوق جلال القدرة والسلطان !

أجل ليس الكرم أو انفاق المال على حبه لتعليم اليتامى والمساكين
ومواساة الفقراء الانزولا عن مقومات حفظ الذات وتضحية لا تقل في شيء
عن الضحايا التي يقدمها الأبطال لخير الإنسانية .

أحسن أيتها السيدة المحسنة وليدم برك بالفقراء ، القدوة الحسنة للنساء
والرجال جميعا .

الآثار القديمة

على الرغم من الضعف الذى وقعت فيه مصرنا فمن الحق أن المصرى تأخذه هزة الارتياح ويلعب به شعور العزة أمام عظمة المصريين القدماء، ويكون حظه من شعور الفخر أكبر من ذلك، لو أنه عالم بالحوادث المصرية المكتوبة على حيطان المعابد والمخاريب ووجيات القبور أو قارئ ترجمة تلك النقوش في أشعار الميسو ماسبيرو ومارييت ونافيل ومحاضرات كمال بك، إذ يعلم أن مصر كانت من العزة في ذلك الزمن الغابر على قدر أن الملك كان له نحو اثني عشر رجلا من الأمراء وغيرهم يقومون بأمر التشريفات، يصل إليه سفراء الممالك الأخرى راكمين ساجدين يرغبون أنوفهم بالتراب ويجأرون له بالدعاء يقطع أصواتهم خوف الملك وجلالته. وأن الملك لم يكن كل شيء في مصر بل كان لأمراء الأمة ووزرائها في كثير من الأحيان أثر عظيم في الإصلاح وفي الحكم. وأن المصريين لم يكونوا — على ما يصفهم عامة الأجانب — مخلدين إلى السكينة كارهين السياحة والتنقل قانعين من الرزق بما تحت متناول اليد. بل كانوا أمة جد واستعمار تجرى في استعمارها على أحدث الطرق الأوروبية الآن، إذ يخرج المرسلون من مصر إلى الأقطار المختلفة في أفريقية يجوسون خلالها حاملين إلى أهلها العطر ذا الرائحة النفاذة

الآثار المصرية
والسماوية

والأقشة الزاهية الألوان وغير ذلك مما يحمله الأوروبيون في هذا العصر إلى سكان تلك الأقطار الشاسعة في أفريقية . ولم تكن أغراض المصريين من فن السياحة قاصرة على الربح التجارى . بل كان أولئك السياح يكسبون بلادهم نفس الفوائد التى جنتها انكلترا من وراء الشركة التجارية الانكليزية في بلاد الهند قبل فتحها، وسياحات سيسل رود، وما كسبته فرنسا من بعثاتها في الكونغو والسودان، إذ كان السياح المصريون يدعون الناس لاستماع أخبار مصر والمصريين ودينهم ولغتهم ويبينون عظمة ملكهم وثروة بلادهم حتى يصوروا مصر في أذهان القبائل بصورة القوية القاهرة التى لا يعجزها تحقيق شيء مما تريد، فاذا رجع أولئك المرسلون إلى مصر وصفوا تلك البلاد وأفاضوا للحكومة بكل ما وصلوا إليه من المعلومات فتسير الجنود المصرية على أثر ذلك تفتح البلاد النائية التى صار فتحها بفضل معلومات السياح المصريين أمراً هيناً . ولقد كان المصريون أسمح الأمم في استعمارهم لأنهم كانوا يسرون فيه على مذهب اللامركزية يحفظون على الأمة المغلوبة دينها وعاداتها وشكل حكومتها ويتركونها حرة في بلادها مقابل الاعتراف بالسيادة المصرية، وكما أن مصر تحمى المستعمرة من الاعتداء الأجنبى، كذلك كان يجب على المستعمرة المصرية أن تتعهد بدفع خراج سنوى وأن تنصر مصر في حربها مع أية دولة أخرى

لا شك في أن علم المصرى بهذه الحقائق المسطورة في نحو القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد، يخرج من نفسه القنوط من ارتقاء مصر ويجعل

آراء الذين يظنون بمصر عدم الاستعداد الطبيعي للاستقلال والسيادة من
 السخافة بمكان . فان ما جاز عليه الكون في الماضي ، غير ممتنع عليه أن
 يكون . ولا شك في أن المصريين حتى المتعلمين قليلو الاهتمام بالعلم بمصر
 القديمة إلى حد حرماننا لذة هذا الاغتياب بما كنا عليه . ولذة التشبث بالعمل
 إلى استعجال القدر ليذهب بهذا الحاضر التعيس ، وليعيد مصرنا إلى
 الماضي القديم .

أخبرني أحد أصدقائي قال : سافرت في الشتاء إلى الصعيد لزيارة الآثار
 القديمة والاستراحة من عناء العمل فلاحظ على سائح الماني أن العجب يأخذ
 مني مأخذاً كبيراً عند رؤية الآثار المصرية ، فسألني إذا كانت هذه هي المرة
 الأولى لزيارتى إياها ؟ فقلت نعم ، فضحك وحققه ، فسألته عما إذا كان زار هذه
 المعاهد من قبل ؟ قال زرتها سبعاً وعشرين مرة وهذه الثامنة والعشرون ، وعلى
 أن أجيء كل عام في المستقبل أيضاً ، فضحكت منه أنا نوبتي ، وقلت له فهمت
 أنك كنت في المرة الأولى مستطاعاً مستفيداً فأتممت في المرة الثانية ما نقصك
 في الأولى من الاستفادة ثم اعوزك الوقت لاتمام قصدك فجت الثالثة وفيها
 مقع لمستطاع وقضاء لبغية النفس من تكرير النظر للجميل . فما رأيت
 أعجب من تسويغي زيارة الآثار إلى هذا اليوم إلا ا كشارك من رؤية
 الشيء الواحد ، واستزادتك من ذلك على غير جدوى . قال أوكد لك انني
 كلما زرت هذه الآثار شعرت بالرضى بل باللذة التي كنت أشعر بها في كل

مرة سابقة وما رجعت مرة الا بفوائد جديدة لم أكن لاحصل عليها من قبل .

هذا حديث له أثر ثابت في فهم هذا الاهتمام الذى يعرفه الألمان والفرنسيون والانجليز والأميركان فى زيارة آثار مصر واستنطاقها عن أخبار العالم الأول ، ليضيفوا بذلك صفحة أو صفحات إلى أسفار التاريخ القديم ولينتفعوا بذلك فى معرفة قوانين النشوء والارتقاء التى صارت عليه العلوم والفنون والصنائع من نحو سبعين قرناً ، وليبحثوا فى جوانب العالم عن الحلقات المفقودة من سلسلة الظواهر الاجتماعية والحركات البسيكولوجية التى تطورت بها الأمم حتى صارت إلى ما هى عليه الآن . فان الذى يجهل ماضى العالم حقيق به أن لا يصح حكمه على حاضره ولا على مستقبله . ومن لا يعرف تطورات الإنسان ، لا يستطيع أن يضع له قوانين السلوك فى الحياه : كتب إلى أخيراً أحد أصدقائى نزىل الأقصر اليوم .

(أ كتب إليك بعد أن زرت معظم الآثار التى خلفها لنا أجدادنا زيارة داخلنى منها الزهو وتضاعف بها حبي لمصر وطنى ، ولكن الحب لم يصف من شوائب الحزن ؛ لماذا لا تدرس فى مصر الإيجيتولوجية كما تدرس بالانجلترا) هذا الكتاب أيضاً تدل عبارته على شعور كل مصرى متعلم يقف أمام الآثار المصرية لا يعرف منها إلا ما يعرفه العامى . يعرف من الأثر أنه عظيم متقن دال على آية الملك الذى يخبر عنه . هذا كل ما نعرف من آثار بلادنا .

لا أطلب أن يكون كل رجل منا يطاول شامبوليون في دقة ملاحظته وقوة استكشافه. أو يبارى ماسبيرو في إحاطته بالآثار المصرية. أو يكافئ كمال بك في معلوماته الأثرية. ولكن المطلوب هو محاضرة مستمرة ودرس دائم في الجامعة المصرية أو غيرها من دور العلم يسهل السبيل على أبناء مصر أن يعرفوا ماضيهم لا على الوجه العلمى الدقيق، ولكن على الوجه الذى يعرفه السياح الأوربيون من آثار وتاريخ أجدادنا الأقدمين.

ليست أمتنا في هذا الحاضر ذات وجود مستقل عن أمتنا الماضية ولكن الأمة كل واحد غير منقسم وغير قابل للتجزئة. إنها أمة قد خلق جسمها الاجتماعى من يوم أن استقلت بهذا الوطن المحدود وكانت ذات نظام اجتماعى معروف فصارت تنتقل في حياتها من الصحة إلى المرض، ومن المرض إلى الصحة؛ حتى صارت إلى ما هى عليه اليوم. فبعيد على المصريين الذين يريدون ارتقاء بلادهم أن ينجحوا في تحقيق إرادتهم هذه إلا إذا عرفوا حقيقة أمتهم. وحقيقتها هى مجموع ماضيها وحاضرها. "فليست معرفة الآثار القديمة فرعونية وعربية، ولو إلانما، قاصراً نفعها على اغتباط النفس برؤية الآثار الجميلة وتحصيل شعور العزة بذكرى ماضى مصر المجيد. بل هناك نفع أعم أثراً وهو الوصول من معرفة الماضى إلى معالجة الحال حتى يتبدل به مستقبل سعيد.

عسى أن يقع ما نقول من مشاعر الشيبية موقع القبول فيقبلوا على وسائل العلم بمصر القديمة. وعسى أن يجيب علماء الآثار القديمة الفرعونية والعربية نداءنا فينفعوا الناس بمحاضرتهم وخير الناس أنفعهم للناس.

آثار الجمال وجمال الآثار

لا أظن أنه يوجد إنسان صحيح لا يشعر في نفسه بتأثير الجمال أولاً
تتحرك عواطفه حركة لذيذة أو مقبولة توجب الرضا برؤية الجميل . ولقد
تختلف أذواق الأفراد والأمم اختلافاً قليلاً في تحديد جمال الأشخاص والأشياء
تبعاً لتربية الخاصة النفسية التي تتعرف الجمال . فكما كانت هذه الخاصة
التي نسميها الذوق مصفاة من شوائب الخشونة بحكم التركيب الجسماني
والوارثة ودرس الفنون الجميلة ، كانت النفس أكثر إحساساً بالجميل وأدق
حكماً في الجمال . ومهما كان رأى جماعة الزهاد في الدنيا الذين لا يقيمون وزناً
للذائد الإنسانية ولا يحفلون بالصور الجميلة ، وجماعة الفانين في كسب الأموال
الذين يجدون ما عدا ذلك في الحياة من سقط المتاع ، فإن إجماع بنى آدم أصحاب
الأجسام والعقول ، واقع على أن نفوسنا هي أيضاً كأبداننا محتاجة إلى الغذاء ،
ومن أطيب غذائها الجمال ، فإن مشاهدته حيث كان تلقى في نفس الإنسان
سكوناً يلطف آثار حركات المشاغل وينوع حال المشاعر فيحجمها من الكلل
والسامة ويبعد قوتها سيرتها الأولى . فإذا كان الجمال على هذا القدر
من تغذية الروح الإنسانية ، كان تعرفه بمرانة النفس على رؤيته حيثما كان ، من
الأمر الضرورية للعيشة المدنية والتربية الإنسانية ، لا أنه — كما يزعمون —

الجمال
غذاء
الروح

أمر كمالى صرف يتشبث به أهل البطالة وأتباع الهوى وخفاف الموم :
 زعم باطل وإغراق فى اعتبار الحياة حمأة آلام يتمرغ فيها الأحياء لا يذوقون
 فيها من طعوم اللذة إلا تنقلا من ألم قديم إلى ألم جديد ! إذ ليس ذلك
 ما يشعر به عامتنا نحن الأحياء

نحن لا نعرف ماهية الجمال . ولا يهمننا الآن البحث عن ذلك ما دامت
 نشعر به أنفسنا من غير تعريف منطقى . يقولون إن الجمال هو عبارة عن
 مظهر أسرار الكمال فى هذا العالم المادى . أو أنه مرآة حسن التأليف بين
 الصور والألوان . ويقولون غير ذلك .

ولست أظن أنه يهمننا كثيراً أن نسبح فيما وراء الطبيعة لترجع بتعريف
 للجمال . وهو هو بعينه ذلك الذى نشعر به فى أنفسنا عند رؤية ما نسميه
 الجميل ، سواء كان هذا الجميل مخلوقاً حياً أو جامداً أو فعلاً من الأفعال التى تهز
 عواطفنا ، أو معنى من المعانى التى تقع من النفس موقع الجميل بالحس . وإذا كنا
 حاصلين على معنى الجميل بالفعل داخل نفوسنا فخير من تلمس حدوده فيما وراء
 معلوماتنا ، أن نستمتع بآثاره إذ الواقع أن الجمال معنى من المعانى القدسية التى
 لا تزال محجبة عن أبصارنا الكلية ، مصونة عن التدهور فى هاوية أبحاثنا
 الوضعية ، رفيعة عن إدراكنا المحدود . ومع ذلك فإن آثاره مادية نراها
 بأعيننا فى الصور الحية وفى التماثيل الجميلة ونسمعها فى أصوات الموسيقى ونشعر
 بها روحاً تفيض على مشاعرنا رضى بمشهد الأعمال العظيمة أو بسماع أخبارها
 — ذلك الأثر السعيد ، أثر الجمال ، هو الذى يجب علينا أن ننمى مقداره فى

أنفسنا انحصل بها على أكثر ما نستطيع من العيشة الراضية .

إن تربية الحس الصادق الذى يتعرف الجمال ويتأثر منه ، ليست على ما نظن خاضعة لقوانين معينة ، لأنها هى تربية الذوق . والذوق شئ ليس فى الكتب . على أن نبوغ مصور التماثيل أو رسام الألواح أو صانع التحف أو الموسيقى ليس نتيجة لازمة للعلم بأصول معينة بل هو إلهام من الله وفيض من الفيوض ، أو كما يقولون استعداد خاص قد تفسده قوانين العلم وينميه فى نفس العبقرى خروجه فى صناعته عن حدود المؤلف .

أجل إن أرباب الفنون الجميلة فى كل زمان لم يقيدوا . حريتهم عمداً بأقيسة فنية ، ولكنهم كانوا دائماً خاضعين لانفعالاتهم الذاتية المتولدة عن عقائدهم ومشاعرهم ومشاعر أهل زمانهم وحاجات البيئات التى نشأوا فيها . ولذلك كانت آثار الفنون الجميلة فى كل عصر من العصور مؤتلفة غاية الائتلاف مع عقائد ذلك العصر ومشاعره وحاجاته واصطلاح الجمال فيه . فترى من السهل على كل ذى إلمام بالتاريخ والآثار أن يعرف الأثر الذى تقع عينه عليه ، فى أى العصور صنع ، ومن أى البلاد هو . فإن هذه الآثار الصامتة تحدث الذى يعرف أن يسمعها . تحدثه بأهل زمانها صادقة ، كما قيل إن أصدق الكتب هو ما كتب بالحجارة .

ليس الحس الصادق الدقيق فى معرفة الجمال محلاً لتربية معينة ذات أوضاع متفق عليها . كذلك لا يعرف التاريخ أن أمة من الأمم — مهما كانت آثار فنونها الجميلة ذات شخصية مستقلة عن غيرها — قطعت

الفن
اللام
اللي

الفن
اللام
اللي

النسب بين فنونها الجميلة وغيرها، ونبغت فيها. بل التاريخ يدل على أن الفنون الجميلة الفرعونية، إنما كان أصلها من أثيوبيا دخلت عند المصريين، فأخذت طابع عقائدهم الخاصة ومشاعرهم وحاجاتهم فتغيرت عن أصلها وصارت ذات شخصية مستقلة. فلما أخذها اليونان عنهم تغير شكلها تبعاً لعقائد اليونان ومشاعرهم أيضاً. فلما أخذها عنهم الرومان تغيرت تغييراً جديداً، وإن كان هؤلاء لم يتفوقوا فيها على أساتذتهم اليونانيين. وهكذا أخذت الفنون الجميلة العربية من غيرها وكانت في بدئها خليطاً ثم أفاضت عليها الروح العربية الإسلامية جعلها الخاص فأصبحت ذات شخصية مستقلة عن غيرها مميزة عما عداها، سواء كان ذلك في الأنعام الموسيقية أو في تحف الآثار والصناعة الفنية والرسم والتماثيل. وإن كانت الصور والتماثيل قليلة في الفنون الجميلة العربية، إلا أن الذي وجد منها في بعض الآثار كالحجراء بخرناطة والقصر في اشبيلية وفي دار المستنصر وغيره من بعض الملوك والخلفاء، قد دل أهل الفن على أن الرسم والتصوير في الإسلام لها طابع خاص.

على هذا الاعتبار يمكننا أن نقول إن الحس الصادق الذي يتعرف الجمال في الآثار لا يجوز أن يهمل أمره ويترك للصدفه الصرفة، اعتماداً على أن المذوق ليس في الكتب، بل يجب أن تمرن النفس على رؤية الجميل من الصور والألواح والمصنوعات وسماع الجميل من الغناء حتى يرق شعورها وتحصل لها هذه اللذة التي تأتي من معرفة الجمال وتقديره، فإنها لا تعدلها في صفاتها وعلو مكائنها لذة أخرى. لذة ضرورية للفرد نافعة للمجموع.

تقدمت على
التمثيل
والرسم
والنحت
والجدارية
والخط

وأقرب ما يكون هذا المران العملى فى زيارة دار الآثار المصرية ودار الآثار العربية وزيارة العمارات الأثرية الفرعونية والعربية كالهياكل والمعابد والمساجد القديمة . ثم زيارتها فى كل فرصة تمكن من ذلك .

يجد الانسان آثار الجمال فى الطبيعة فإنه إذا صفت نفسه واتسع أفق بصره ، وعلت مرتبة إدراكه ، يرى الجمال فى الطبيعة حيثما أدار عينيه . يرى فى الرياض جمالا . وفى البحر الفسيح جمالا . بل يرى فى الطبيعة الجدوب والجبل الأقرع والصحراء الجرداء ، جمالا من نوع خاص . كما يرى الجمال فى بعض الإنسان وبعض الحيوان . غير أن للجمال فى نفوس الناس قيوداً خاصاً يقيدون به معناه العام ، وهو جمال الخلقة فى بنى الانسان على الخصوص . فإذا أقبلت على أحد الشبان تلقى عليه بفتة هذا السؤال : هل تحب الجمال ! تكيف هذا السؤال العام فى ذهنه بصورة امرأة حسناء وكان جوابه عنه مقيدا عنده بهذه الصورة ، إلا إذا ألقت ذهنه إلى معنى الجمال على إطلاقه . ذلك أمر مفهوم لا نغنى باستقصاء مصدره فى النفس . ولكننا يجب علينا أن نطالع هذا الاصطلاح العام بعض الشيء فى تربية الذوق . ومن غير الممكن أن يوفق المرء إلى رؤية امرأة مثل (زهرة روفائيل) فى الجمال . بل قد يكون بين جسم المرأة الجميلة وبين زوجها ، فوارق واضحة تنقص مقدار جمالها إلى ما دون المرأة العادية . وكذلك الرجل . أما ذلك التمثال الصامت ، فإنه لا يلوح عليه من الآثار المعنوية إلا ما أراد المصور أن يجعله مثلاً أعلى للمعاني التى تشف عنها أوضاع الجسم . على أنه من كثير الوقوع أن المرء

الجمال
المشرق
الجمال
المشرق
الجمال
المشرق

لا يقصر النظر إلى الأجسام الحية المتحركة على مشاهدة الجمال المجرد ، بل قد يشارك معنى الجمال في ذهن الرائي معان شتى تشوش على النفس استطلاع الجمال . وليس الأمر كذلك في رؤية الألواح والتماثيل الجميلة . فإن النظر إليها يكون دائماً خالياً عن كل ما يزحم معنى الجمال في خيال الرائي : ولهذا الاعتبار نكاد نقول إن خير نموذج لتربية الذوق في إدراك آثار الجمال هو استدامة النظر إلى جمال الآثار . وربما كان هذا النموذج هو النموذج الذي اتخذته الناس من قبل عند التشبث بتعلم الفنون الجميلة . لأنه لو كانت الطبيعة كفيلة بتقديم نماذج الجمال لا كتفت كل أمة بما لديها من النماذج الطبيعية من غير أن تستعير نماذج الفنون الجميلة من غيرها كما ذكرنا . لا شك في أن الأمة الأولى أخذت نماذجها عن الطبيعة ، ولكن من خلفها من الأمم قدر رأى الأخذ عنها أقرب من الأخذ عن نماذج الطبيعة . فإذا كان شباننا المتعاملون يجعلون من بعض همهم زيارة دور الآثار واستقصاء ترقى التصوير والصناعة الفنية فيها من عصر إلى عصر ، واعتادوا على ذلك حصلوا لذة لا يحصلها الذين يصرفون وقت الفراغ في غير لذة بريئة ، بل في سكون وسامة ، واستفاد منهم المستعد في صحة حكمه عن الأشياء . وزاد علمه بمصر وحبها وتقديره تقديراً صحيحاً مجدها في المدينتين الفرعونية والعربية ، واحترم قومه ونفسه بالتبع . إذ الواقع يشهد أننا لا نعلم من قيمة وطننا ومجده ما يعلمه السائحون . فإذا نحن تتبعنا آثار الجمال وعيننا بجمال الآثار ، حصلنا على بزور جديدة تنفعنا في تمصير المدينة الغربية الحالية لأن أذواقنا تكون بعدئذ خليطاً

عصر الحزن
عصر حزن
عصر حزن

مما تعلمناه من المبادئ الغربية وما كسبته مشاعرنا من التربية الغربية ، ومن ذوق مصرى ونزعات مصرية مصدرها مشاعر جنسنا الوراثة مضافاً إليها المشاعر المصرية التى تتكيف فى نفوسنا تكيفا مصرياً حقيقياً بالإيغال فى تعرف الآثار المصرية فرعونية وعربية .

لا شك فى أن آثارنا جميلة ورؤيتها تبعث فى النفس الرضى الذى يحصل برؤية الجميل . وخير الفوائد ما وجد منه المستفيد رضى ولذة . فلا يغلو الذى يقول إن الوقت الضائع هو ذلك الوقت الذى يصرفه أبناؤنا وبناتنا المتروضون فى غير مواضع الآثار .

لئن قام عذر علمائنا الأثرين فى أنهم لا يظهرون جهبهم لنشر معلوماتهم الأثرية بالمحاضرات ، فما هو عذر الشبان فى هجر دور الآثار التى إن لم يجدوا من يعلمهم فيها ، ويوضح لهم جمالها ، ولم يستطيعوا أن يستفيدوا مما كتبه العلماء من وصفها وسنها ، فلا أقل من أن يدركوا جمالها ويحصلوا لذة رؤية الجميل] إنه لا تتم وطنية المرء إلا إذا عرف أمته قديمها وحديثها ، فإن من جهل قديمها فهو مدع فى جهبها ، لأن من جهل شيئاً عاداه .

ربيع الحياة

رأيت صباح اليوم أزهار الربيع على أكمل ما تكون ، إما في أكامها وآثار الصحة بادية عليها ، وإما زاهية قد مزقت أكامها وأسفرت من حجابها بين بين ، لاهن سوافر خالعات العذار ، ولا هن متخذات ستوراً من الأكام والأفنان . أسفرن فكلهن قرة للعين ولذة للشم ومبعث لحركات العواطف . لا أعرف عن طريق اليقين الوجه في جمال هذه الزهور ، ولكنها في الواقع جميلة . كذلك لا أعرف الصلة الخفية بين رؤية الأزهار وشمها ، وبين آيات الحب . جلت حكمة الله أن تتناولها عقولنا . ولكن الاستقراء دل على ان هذا النوع الانساني منذ نشأ إلى اليوم ، يتعشق الزهر ولا يطيب له مجلس هو إلا إذا كان للزهر فيه المقام الأول مشوراً ومنظوماً ، صحباً أو أشتاتاً . بل كلنا يود أن يكون له بستان فيه زهر ومن لم يجد ، هرع وقت فراغه إلى الحدائق العمومية . ومن لم يجد من الفلاحين أعجبه كثيراً أن يقيم وقت أنسه على قرب من زهر القبول . ومن لم يجد اتخذ له صورة بستان أو خيال بستان من الزهر في آنية الفخار يضع فيها القرنفل والورد في شبايك داره . [بل أصبح من القضايا البديعية أن الدلالة الوضعية على رقى أمة عنايتها بالزهر واستمتاعها به] وما هذا الاستقراء التام إلا جاعل نسباً ثابتاً بين الزهر وبين الأنس ومسارح العواطف

وحركات القلوب . لقد يسمج التعليل المنطقي في موضوع كهذا خفيف بطبعه لا يحتمل ثقل المنطق ورصانة التدليل . ولكنى أستأذن القارئ أن أستدل بهذا الاستقراء على أن الزهر من دواعي التقريب بين القلوب وبين عوامل الائتلاف بين الجنسين . وقد كان دائماً مفتاحاً تستفتح به هدايا الوداد . بل اتخذت ألوانه المتنوعة وأنواعه المتعددة علامات على المشاعر المختلفة التي لها علاقة بذلك المعنى المعروف بآثاره المجهول بكنهه ، وهو الحب .

وإذا كان الزهر من دواعي الحب ، وكان الحب داعية حفظ النوع ، وكان الربيع خير الفصول في وفرة زهره وجماله ^{فهل} يستطيع الأمل بأن هذا الربيع يدعو الغلاة الماطلين من أنثائنا وبناتنا إلى فك (الاعتصاب) الذي لزمهم أو لزموه هذه السنين الأخيرة عن أكبر واجب حيوى ! فينزل كل منهم عن المثل الأعلى في خياله إلى ما دونه من الأمثلة . ولا يتشدد في التمسك بالاعتبارات الإضافية كفقير الزوج أو مركز أبيها في الحكومة .. الخ ^{دعوا} أن يتساهلوا بعض الشيء ولو في بعض الشروط المعقولة عندهم غير المقبولة عندنا نحن الآباء ، لا بحجة العقل ولا الدين ، ولكن بحكم العادة الطويلة . هل يستطيع الأمل بأن هؤلاء الماطلين المتعصبين يخففون عنا كابوس الخوف من قلة النسل في الفرقة المتعاملة من الطبقة الوسطى ؟ إنهم لو ذاقوا تلك السعادة الزوجية وشملهم سلام العيشة العائلية وشعروا بلذة عواطف الأبوة ، لما احتاجوا إلى إلحافنا في المسألة ، ولندموا على ما ضيعوا من ربيع الحياة .

جنى القطن

[لأجل من العمل إلا جنى ثمراته]، وما أسعد صباح الجنائين ! يتنادون فيجتمعون . ويتفقد بعضهم بعضاً ثم يسرون . يمشون في طلعة الشمس جماعات جماعات مستبشرين رجالاً ونساء فتيانا وفتيات صبيانا وصبيات ، يأخذون معهم مواشيهم تأكل تحت أعينهم من حشيش الأرض أو من خف الذرة المجاورة لمزرعة القطن ، تتبعهم كلابهم أيضاً ، فتكاد العائلة لا تخلف في البيت إلا من تصلح لهم الطعام . ترى الأطفال وقد خفت من الفرح جسومهم الصغيرة فهي تنط من هنا إلى هنا ، وتثب وتلتفت ، يضحكون من لاشئ ، يغنون طربين بأنهم تركوا المألوف من تفرق العائلة بكرة النهار كل إلى عمله بعيداً عن الآخر ، كبار العائلة إلى المزارع ، ونساؤها إلى الأعمال المنزلية ، وصغارها بعضهم يذهب إلى المكتب وبعضهم يسرح بالماشية . تنسخ هذه العادة يوم جنى القطن ، إذ يذهب جميع أفراد العائلة بمجملتهم إلى المزرعة ، يتسابقون في الجنى ، ويتبارى فتياتهم في الغناء ، وتنافسهم في إجادة النكت الجميلة يضحك منها الجميع .

إن هذا المنظر الجميل لأولئك الرفقات المستبشرة ، لاتدع محلاً للشك في أن جنى القطن هو موسم سعادة الزارعين .

يمشي رب العائلة إلى الغيط أمام عائلته وقلبه مملوء بالرجاء . يرجو أن تكون ثمرة عمله السنوى وفيرة يؤدى المسال ويدفع الإيجار ويبقى له من ثمن القطن ما يفي بنفقاته . وكان هذا السرور الداخلى يطبع على وجهه سيما الرضا ويفيض على أخلاقه سعة الصدر . ينظر إلى أهله وذويه نظرات المودة حتى إذا أراد حثهم على العمل لا تكون صيغة الزجر إلا صيغة تلطف وتشجيع ، إذ يدعوهم بالعافية فيقول (عوافى) .

شغل المزارع كله صامت أو قليل الجلبة بطيء الحركات له مسحة من الوقار وعليه أمارات الصبر وسكون الحزن ، إلا جنى القطن ، فإنه كثير الحركة متوالى الجيئات والروحات خفيف الحمل يتخلله طيب الغناء وعذوبة اللحن حيناً ، وحديث الجنائين بعضهم لبعض حيناً آخر [يتجلى فيه الفرح بالجماعة . وإن للجاعة لروحاً عامة تفيض على أفرادها حتى إذا مرت بهم من على الطريق ، وليس لك فى القطن فتيل ولا من ثمنه مليم أفاضوا عليك من فرحهم فشاركتهم فيما هم فيه . ولست أعرف منظراً أروح للنفس من منظر الراضين .]

إن لم يكن القطن جميلاً عند أهل المعرفة بالجمال ، فإن جنيته من أجل ما يكون . ومع ذلك فهو جميل . انه نافع وكثيراً ما يكون الشعور بالجمال غير خالص من دواعى المنفعة . كثيراً ما يكون الجميل هو النافع ، بل ذهب بعض المتعرفين جمال الأشياء إلى أن أصله فى النفس المنفعة لا غيرها . على أن مزرعة القطن المحصورة فى ذلك الإطار من التيل^(١) القائم عليها قيام السياج

(١) من عادة الفلاحين أن يحوطوا مزارع القطن بنبات التيل يتخذون منه حبالاً (الناشر)

على البستان ، ليست إلا لوحة من ألوان الطبيعة الجميلة عند القلوب التي تقدر الجمال . لو أن الجمال معروف الأوضاع ومحل للدليل والبرهان ، لقلت كيف لا يكون جميلاً مجموع تلك الشجيرات مشتبكات على مسافات متساوية سيقانها حمراء وأوراقها صفراء وخضراء ومذهبة وعلى غصونها المترنحة ، أبراج القطن الأبيض . . . الخ

[ولكن] الجميل هو ما ترضى به النفس وتبجبه كذلك . إن شئت روضاً فهو كذلك ، وإن شئت غلة فهو كل ثروة البلاد **[جنبيه]** الظاهرة الاقتصادية الكبرى في مصر ، وإلى حاصلها تنسب الشدة والرخاء طول العام . يظن التقاة من المزارعين أن حاصل هذا العام لا يصل بحال سبعة الملايين وقد كان في العام الماضي وشيك الثمانية . لهذا التقدير ولتقديرات أمريكا ، يقولون إن القطن سيزيد ثمنه زيادة تعوض بعض الخسارة في كميته . ولست أظن هذه التقديرات العابثة بحجة عن أدمغة أرباب المزارع . إنهم يدركونها وهم وسط أولادهم في الجنى فتثقل رؤوسهم ، فيطرقون بعض الشيء . وكأنني برئ المزرعة استخفت من حواليه أصوات ذويه الجنائين حين يرهقهم حر الشمس في الظهيرة يكثر تفكيره في تقدير حاصل زراعته وتتمثل أمامه شخوص الدائنين الملحقين في الطلب فيطرق ، ولكنه لا يلبث أن تحجب الشمس غمامة فيمسح الأولاد جباههم باردانهم ، ويعودون إلى غنائهم فينبهوه ويشاطرهم ما هم فيه من الغبطة ، وكأنني به يقول وهو يطرد عنه هم الوفاء : خلنا نأخذ بطرف من سرور الحياة وهوها فسرورها قليل وندع الهم إلى ساعة الوزن وتصفية الحساب .

أول العام

بالناس في الجديد من الزمان رغبة وإليه شوق . نفرح بالعام الجديد والشهر الجديد . كأن حاضراً يثقل علينا حملاً ، نرغب في الفرار منه إلى غيره . أو لأن النفوس شقيقة إلى معرفة ما يكنه المستقبل في الصحائف المطوية وراء حجب الغيب . في ظرف الزمان نستبطئ الحاضر ونستعجل المستقبل ، والذي نرجو أن يحقق فيها كل امرئ آماله وأمانيه . وما أول العام إلا باب هذه المسافة الزمنية . لذلك كان استقباله عندنا عيداً من الأعياد .

يا عجباً من الإنسان ! هو يحب الحياة ويفرح بانقضاء الزمن وما هو إلا انقضاء الحياة . ولقد جرب ثم جرب أن المستقبل إن حقق له لذة منتظرة ، فقد رماه أيضاً بآلم جديد . وإن أسدى نعمة فقد اتبعها بنقمة ، وإن جاء بحسنة فما يلبث أن يصيب بالسيئة . وما هذا المستقبل المنتظر إلا أشبه ما يكون بالماضي بل هو شر منه لأنه زمن الهرم وموطن الضعف والممانع من قدرة التمتع بنعيم الحياة . [من الصعب أن ندرك ذلك السر الخفي الذي يجعل المرء يستعجل المستقبل فيما يتعلق بحياته الفردية ويشغل به إلى حد الانصراف عن كل الحاضر . ما دام المستقبل هو فناء الحياة . نعم تنقضي حياة الفرد وهو يرجو من المستقبل أن يعوض عليه ما فاته فهو لا يفتأ يرجو ، والدهر لا يفتأ يخيب ذلك الرجاء]

[ولكن الإنسان إذا قصرت حياته عن تحقيق أماله الشخصية فإن الأمم
طويلة الأعمار إذا أدركها الهرم لا مانع يمنعها من استعادة شبابها وقوتها. فلا
جرم أن ننتظر من المستقبل أن تتحقق فيه آمالنا العامة وأطمانا القومية
ويجنى شعبنا ثمار ما غرسه أبائنا وما يغرس الجيل الحاضر من المبادئ
القومية. ونستعجل الأعوام المستقبلية تجيء بالسعادة التي يرجوها المصريون.]
أهلاً بأول العام مهما نشر لنا عامه من مطوى الحوادث، فإنه يجدد لنا
ذكرى جده الأول يوم هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ذلك اليوم الذي
سن فيه النبي للناس كافة أن الحق أحق أن يتبع، وأن المرء يجب عليه أن
يضحى في الدفاع عن الحق ما استطاع من الضحايا ولو كلفه هجرة وطنه وأهله،
والسلب مما هو فيه من نعمة الطمأنينة والراحة. بل لو كلفه تعريض حياته
إلى أشد الأخطار. ذلك اليوم الذي قلب وجه العام وبدل الشرك توحيداً
والضلال هدى والظلام نوراً والظلم عدلاً وتفاضل الناس بالإنساب والأموال
مساواة. يوم الإخاء والمساواة يوم الديمقراطية الصحيحة. يوم تقرير سلطة
الأمة في شؤونها الدينية. والدين لله الواحد القهار.
لكل قوم عيد. وهذا عيد الأبرار الذين يقولون بالإخاء والمساواة ويجرون
وراءه تحقيق سلطة الأمة ويسيطرون على المبادئ القومية التي جاء بها الدين
الحنيف لخير الأفراد والشعوب.

التي
التي
التي

الرجل السعيد

لم تك بي حاجة إلى مصباح ديوجين لا بحث عن الرجل الطيب، ولكن بنا حاجة إلى نور الأرض والسماء لتتعرف الرجل السعيد .

إذا كانت السعادة في أفراد الأمم البادية قليلي الحاجة والمهموم ، يلعب نورها في عيونهم الجميلة السليمة من أذى الإجهاد ، ويتفرق مأوها في جباههم الواضحة ، ويتم خفة حركاتهم عن قلوب خفيفة من أوزار الحياة ونفوس طابت عن كثير من عرض الدنيا وشره المدنية ، رضيت من مزايا الحياة بالحرية .
ونعم الحال تتقلب النفس على هواها في مراتب العزة وتأخذ من العيش بنصيب صفا من كدر الأحقاد وغصص المزاحمة المستمرة وخلا من المهموم العامة لأهل الحاضرة ، إلا مما كان من غارة يقتضيها العيش أو لقاء عدو للدفاع عن الوطن .

وكلاهما قد يزول همه بانقضائه ، لا كأهل المدينة سلمهم حرب وحرهم حرب . فهم في السلم من خوف الحرب في حرب شعواء ، أدهى وأمر من الرمي والطعن والضرب . وهم من خوف الفقر ومن المزاحمة على حاجات الحياة وكمالياتها في حرب . وهم من ثروتهم العالمة والفنية والمالية في فتنة مستطيرة الشرر ، تغلق الملى والخالى ، وتكد ضمير العظيم والحقير على السواء .

إذا كانت السعادة في أفراد الأمم البادية ، فالخلق بها أن لا تكون في
مدنيتنا . بعيد على السعادة ، وهي أمنية الحى ، رضاء النفس وطمانينة
القلب ونور العين ، أن نلقاها في حمأة الشهوات الذى تزحف فيه النفوس
وتتخبط فى ملاطمة القوى والملكات . إلا الذين أخلصوا قلوبهم
وتعرفوا الحياة بالعقل وبالمثل ، فعرفوها عن قرب [] يضررون فيها
لأشخاصهم هونا ويعملون لسعادة غيرهم جمًا ، ويكبر فى صدورهم حب
الإنسانية وتنمو فى نفوسهم طبائع الخير فتميت ماعداها من الميول .
رضى الله عنهم ورضوا عن أنفسهم ، وحققوا سعادتهم فى هذه الدار .
أولئك هم السعداء . []

أين الرجل السعيد الراضى بحاله فى هذه الحياة الدنيا ؟ وقلب المرء بما أودع
من الموم الحقيمة والجليلة ، لا يهدأ روعه ولا يسكن هياجه إلا إذا أصاب
أغراضه ووصل آماله وبلغ أمانيه وما هو ببالغها ؛ وكلما انقضى منها سبب جاءه
سبب جديد . إنه لانهاية لأغراضه ونهاية حياته واقعة لاشبهة فيها وإن
حاول هو أن يؤجل هذا الواقع . وإنه على ذلك ينفطر قلبه حسرات على
ما يفوته من مطلوب وتذوب نفسه شعاعا على فقد محبوب . إن أصابه الخير
يزهيه فيركب متن الكبرياء وهو بركوها شقى . وإن أصابه ما يظنه الشر
يتبرم بعدل الوجود ويتغير للجمعية ويركن إلى الخمول أو يجرع كأس الذلة
وهو بذلك أيضاً شقى . ولو أنصف الإنسان لاعتقد أنه لا قبل له بتغيير مجرى
الحوادث . ولا طاقة له على حسن تقدير الخير والشر . (وعسى أن تكررهما
(٣)

شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) .

لو أنصف الإنسان لما جعل له من غرض في الحياة إلا القيام بما يعتقده الواجب ، يخلص له النية والعمل جميعاً . يعمل ثم يعمل ، فإذا جاءت النتيجة على وفاق ما يقدر فليرض وليقتنع من الرضا وليرضى نفسه على أن لا يخذعها النجاح كيلا تجمح وتتعرض عليه فيضيع من يده زمامها . وإن أكدى العمل وجاء بنتيجة عكسية ، فليرض أيضاً وليرضى نفسه على أن لا يخذعها الفشل ، فتمل العمل وتقصر في أداء الواجب .

غرض الحياة
النظام
بالواجب

ألا إن السعيد هو من يعرف أن يرضى بحاله . فليست السعادة هي الثروة ولا الاستمتاع بها . وليست هي الجاه ولا آثاره . وليست هي الحب ولا لذاته . وليست هي العلم ولا نوره ولا منافعه . وليست هي الجهل ولا جموده وجرائره . وليست هي النباهة ولا كبرياؤها وليست هي الخمول ولا انزواؤه وتعطيله . وليست هي الحكم ، ولا في نظام الإستبداد ولا قدرته وليست هي الجمال ولا شفاعته . وليست هي الظرف ولا خفته . و بعيد أن تكون هي العقل وحسابه ، ان لم تكن هي الخيال وأوهامه . ليست السعادة شيئاً من ذلك ولا هي كل ذلك بجمعه . بل السعادة ظن السعيد أنه سعيد .

جلت قدرة الله : إن لم نتعرف السعادة بين البؤساء فنحن لا نعرف لها أثراً بين الأغنياء . وإذا وجدناها من حظ الأغنياء فمبهات أن نجد فيها نصيباً كبيراً للأذكاء !! نوكد أن السعادة هي أحساس الموجودات وليست من

الإعدام. ولكنها لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم. لا يلقاها إلا من كان لا يعرف
 لهم. وهذا الصنف من الناس لا تنفعنا سعادته، كما لا يعز علينا شقاؤه. ولا
 يلقاها إلا رجل ذكى القلب راضى نفسه على الرضا، فرضيت غير كارهة.
 عرفت الحياة فلم تبالغ في تقديرها وعلمت قيمة الواجب وقدرت على القيام
 به حق قيام. وأخذت الحوادث فاستقبلتها كما هي لا كما يجب أن تكون.
 ذلك هو السعيد الذى نرجو أن تكثر فى العالم صورته، [حتى لا تكون
 السعادة بالعادة أو بالجود وعدم المبالاة، بل لتكون السعادة فى العمل بخير
 الإنسان وبالعمل لرقى الإنسان.]

الرجل الصريح

إذا كنت تقابل الناس بأكثر من المعروف هشاً وبشاً وتلطفاً وتسوم
طبعك المزح الذى ليس من خلقك ليقول عنك الناس ما أطفه وما أرق
حاشيته ، فإنك بذلك توشك أن تعد فى ضمن الخادعين ، وما أنت بالرجل
الصريح .

إذا كتبت أو خطبت فأخفيت ما تعتقد لتظهر ما لا تعتقد مجازاة لراى
الناس ، فما أبعدك عما يشخص الرجل الصريح .

إن الخداع درع خلقه تكاد لا تستر الخداع إلا ما دام الناس عمياً . فإن
أبصروا لا يلبث ستر الخداع أن يتمزق ارباً ويتلاشى هباء عن الكذب
عريان خجلاً لا يستطيع بعدها أن يكون مطرحاً للثقة ولا محلاً للمعاملات .

كأنى بالخداع لا يركب نفساً إلا نزلت عن شخصيتها وضلت فى تقدير
ماهية المنفعة الشخصية وجنبت عن احتمال المسؤولية عن أعمالها فضعفت
أن تبرز فى ميدان المعاملة الإنسانية إلا مقنعة بالزور مشتملة بشوب كثوب
الثعبان من النفاق . فلولاً رحمة من الله وعقل هاد إلى الصواب وتسامح من
طيبات النفوس هلك الخداع لساعته ضعفاً عن الحياة وأسفاً على ما فرط
فى حق نفسه وفى حق الصراحة الإنسانية .

الصراحة ضمير حى وعزة تحمى من المداواة وشجاعة تكفى لاحتمال
مسئولية ما ينكره الناس على الرجل الصريح .

ذكرت جريدة الأهرام أحد نوابنا فقالت : (.... حلو الدفاع عذب
العبارة شديد العارضة إلا أن له ضميراً حياً لا يخالفه) . ذلك هو المثل
الصريح للرجل الصريح .

كثرة الصرحاء فى الأمة إمارة على عزتها ، فمتى تكثر فينا صورة الرجل
الصريح ؟

زهر الربيع

[ليس كل الحياة شقاء للسعى إلى مال ينفق أو يدخر وإلى مباراة في رفعة المناصب . بل الحياة أيضاً استمتاع بجمال الطبيعة . فكرة خفيفة الوزن تافهة القيمة عند أهل الوقار . أولئك يرون ركض الدابة ينافي الوقار . ولعب الكرة يذهب بالوقار . ومعظم أسباب التربية البدنية لا يتفق على ما يجب للرجال من أطراق طويل وسكون عميق وجمود على المأثور عن السلف الصالح القريب . كأن الأمة يجب أن تكون كلها من أهل الرياضة والكشف ، يضحون قوة البدن لصفاء الروح حتى تنزع بجهتها القدسية عن هذا العالم السفلى إلى الملكوت الأعلى . ولو أنهم أرادونا على احتباس النفس عن هـو الدنيا ولعبها إلى العمل الآخرة ونعيمها ، لكان فيما يهدون إليه من التقليد مغنم . ولكن الحال قد تبدلت إلى صرف النظر عن جمال الطبيعة ونعيم الحياة الانسانية إلى أخس أطراف هذه الحياة : الحرص على الخدمة في الحكومة والحرص على فقد الحرية في كل شيء حتى في اللذات البريئة ، حتى في الاشتغال بتربية ملكة الجمال ، حتى في العناية بغرس الأشجار وتوليد الأزهار . الحرص على فقد الصراحة في كل شيء حتى في الأعمال الشخصية . تقف عن الظهور بتعرف الجمال حيث كان . وعن إعلان حب الجمال .] وعن

الظهور بحب الأزهار واستقبال الربيع بالتحية والارتياح. [بديل ذلك
استغراق في اللذات الخجلة بشرط أن تكون خفية حتى لا تجرح قدسية
الوقار! رب! كل ما خلقت تابع لقانون التطور حتى المعاني والأفكار.
فالذين تجردوا من مزايا السلف الصالح في علم يفيد وجد ممتع وسيرة طابت
ظواهرها وبواطنها قد اكتفوا من أسلافهم بتقليد شيء واحد لم يقدرُوا
إلا عليه وهو صورة ظاهرة من الإطراق لا في التفكير والسكون، بل
هو مظهر يقتضيه الوقار؟ فإذا تحركت النفس الإنسانية في هذا الجسم
الوقور فإنما حركتها إلى الشهوات السافلة المنحطة دون الشهوات العالية من
اغتياب حقيقى بجمال الطبيعة، وتقدير صحيح لما أودع في الفنون من كنوز
الجمال. ذلك جيل ذهب بأهله. ولنا جيل ناهض يجب أن يؤلف بين علمه
وبين نزعات نفسه. ويضيف إلى تثقيف عقله تهذيب مشاعره. ويطرح
جانبا كثيرا مما ورثناه من ماضينا القريب، فيعمل للمزاومة العالمية ليكسب
قسطه تحت السماء من مال يسد الحاجة وقوة تحمى الوطن ولذة بجمال
الطبيعة تعين على فهم الحياة. فيعنى بمظاهر الجمال كما يعنى بزراعة القطن،
لأن الحياة ليست شقاء خالصا بل هي يومان: يوم للشقاء ويوم للنعيم،
ويأخذ بنصيب من الالتفات للظواهر الطبيعية كما يحرص على الاستفادة
من الظواهر الاجتماعية والحوادث الاقتصادية.]

ها نحن أولاء أمام الربيع. أزهاره تنسم أنفاسها. وتأخذ بأبصارنا
ألوانها. وتحرك جذتها عواطف الحنان في قلوبنا كأنها بعض أبنائنا إن

مرآها وريهاا ينقلان نفوسنا من عالم الشقاء إلى عالم النعيم . ومن أرض الحقيقة الواقعة إلى سماء الخيال الجميل . لا أظن هذا الانتقال وهمياً لاوجود له . كلا إنه صحيح واقع فإننا نشعر بوجوده في قلوبنا ونرى آثاره على وجوهنا . إن خيال اللذة البريئة موجود وأثره سعد ، ولعله هو نعيم الحياة . فأهلاً ومرحباً بأزهار الربيع .

ليس جديداً علينا بنى الانسان أن نعلن مشاعر الاعتباط ونسدى عبارات الإعجاب إلى الربيع وجماله . فقد كان ذلك في كل زمان موضوع وصف شعرائنا . والحرك الأول لعواطف المحبة في صدورنا . وكأن الزهر رسول المودة وهدية الحب بين الأنفس الحساسة التي بينها وبين الجمال نسب متين .

كنا ولا نزال نبتهل إلى الربيع ونسب بالطبيعة ؛ فهل لها أذن تسمع تغنينا بجمالها ؟ أم هي صماء صادرة عن قوانين أزلية سائرة إلى مصير مرسوم لا تلقى نظرة على سكانها المفتونين بزخرفها الفانين في حبها . وهم في الحقيقة ضحايا عدوانها . ليكون كل ذلك . ولكن ذلك غير مانع لنا من أن نستوفي قسطنا من الحياة على أكمل ما نستطيع . نبلو مرها ونطعم حلوها . ننسى آلامنا فيها بما يسحرنا من جمال أزهار الربيع .

علموا أبناءكم حب الجمال ، ونموا في نفوسهم ملكته ، ليعلموا أن الحياة ليست جحيم الهموم ولكن فيها لحات من النعيم . إن حب الجمال يرفع النفس إلى لذائذ أطهر طبعاً وأسعد أثراً وأبقى في العواطف نتيجة من كل ما عداه من لذائذ الحياة . وإن أبسط موضوع لتعرف الجمال والمران به ، أزهار الربيع .

الصدّاقة

حدثني صديق ذكي القلب ينتفع بكل الحوادث ويعتبر بكل المشاهدات قال : ركبّت الترام إلى جانب السواق فحضرتني طائفة من الأفكار ترجع كلها إلى حال هذا العامل وما يعاني من سفر مستمر خلو مما نجد نحن في أسفارنا من التعزية ببلوغ الغرض . وما يحمل من مسؤولية كبيرة مستمرة إذ هو مسئول عن سلامة الراكبي تراه ، مسئول عن المصادمات ، مسئول حتى عن الأطفال المعسفين يمر أحدهم أمام الترام ليغتنب بخفته في العدو وليهزأ بسرعة الكهرباء ، أو يتصدى للتعلق به سائراً من على اليمين حيث يتاح له الهزول من غير خطر أو على الشمال إذا زلقت رجله ، فهو وشيك أن يلقى بين ترامين . قال حادث السائق حيث لا خطر من محادثته وسألته ماذا يجد من عمله وهل هو يذوق لذّة المسؤولية التي يحملها والخدمة التي يؤديها : فأجاب ببساطة خاصة بالأفندية من درجته ومستوى تربيته : إن عمله شاق ممل ، ولكنه يخفف عليه كثيرا هذا الملل أن يقابله سواق آخر من أصحابه يتبادلان في هذه الفرصة الضيقة عبارات التحية لا يتمّانها حتى يبعد كلاهما بحيث لا يسمع صوت الآخر . تسلية ضئيلة ! ولكنها مع ذلك مثيرة في النفس اكبار الصدّاقة وإنها من الشروط الأصلية للحياة .

لم ينفرد صاحبنا السواق بالمسئولية بل كلنا في المسئولية سواق ترام يحتمل
مسئولية عمله ونتائج أعمال غيره أيضا . وكلنا معذب لا بد له من تعزية .
تخفف عليه حمل الحياة . والظاهر أن أكثر التعزيات خيراً وأطولها عمراً
وأطهرها طبيعة هي الصداقة .

يرد على الخاطر في هذا المقام معنى قلما فات امرء استعماله : (لا لا .
كلنا أصدقاء) . يقولها الواحد لصديقه إذا عرض عليه الاشتراك في عمل مالى
أو نحو ذلك من الأعمال التى مغبتها عادة الاختلاف على المنافع وتبدل الصفاء
كثيرا بين المتعاملين ! مهما قيلت هذه الجملة في مقام الاعتذار ، ومهما ابتذل
استعمالها فصار يتناول علاقات غير الأصدقاء فى الحقيقة ، إلا أنها مع ذلك
لشيوعها فى الناس تعتبر من جانبهم اجماعا على أن الصداقة فوق كل المنافع
وأعلى ثمناً من أن يشتري بها الرجل كائنا ما كان من الأعراس الانسانية .
ما هى حياتنا إن لم تكن فى الواقع مجموعة من المشاعر المختلفة . بها وحدها
نحيا ومن أجل الجمع بينها والخصول على لذتها نتعب وننصب وفيها نحيا
ونموت ! وما أظن ما فى الانسان من قوى مادية وعقلية إلا خدماً لتشبيع
مشاعره النفسية : ألا ترانا ننظر إلى ما فى الدنيا بنظرات تأخذ ألوانها من
صفاء نفوسنا وكدورتها . فالملتقط بما هو فيه يرى الحياة وردية — كما
يقال — ولو كان فى فقر الأنبياء أو فى غيابات السجون ! أما الذى يظن
أن تقطعت به أسباب الفوز ولازمته خيبة الرجاء فى مقاصده أو فى أصدقائه .
أو من هو لأى سبب تكدرت مشاعره ، فلا يرى ما هو فيه من نعم الحياة

إلا جحياً مقياً . أنها مشاعرنا النفسية هي التي عليها العمدة في جعلنا سعداء
 أو أشقياء . فليس بعجيب على الانسان أن يجعل للصدقة وهي أظهر المشاعر
 الانسانية هذه القيمة ويفضل الشعور بها والاعتباط بلذتها على كل شيء .
 يسرف الناس في استعمال لفظ الصديق مقولاً على الزملاء والمعارف
 بل ومعارف المعارف . وما أرادوا بذلك امتهان الصداقة وابتدال أمرها ،
 فإنهم منذ طفولة الانسانية إلى الآن ، يمشدون الخلل الوفي ويقولون بامتناعه
 بوصف أنه المثل الأعلى للصديق . ولكنهم يريدون أن يشرفوا طبائع
 علاقاتهم بعضهم ببعض إذ يعطونها لون الصداقة أو لفظ الصداقة . ولوسئلت
 ما الصديق لما زدت على أنه ذلك الانسان بعينه الذي تشعر في نفسك
 بالفرح عند لقائه والشوق للجلوس إليه والافاضة له بكل ما لديك ، تعطيه
 مفتاح عقلك وقلبك آمناً ليرى فيهما كل شيء . يوحشك بعده ويؤنسك
 قربه وتجد من نفسك باعثاً قويا وحاجة لا يسدها إلا لقاءه .

ولقد نجد في الأمثلة الصديقين يكون كلاهما الآخر على ما وصفنا ، فلا
 يقع بينهما ، إلا أصبحا لا كالمعارف بل كالأعداء . وهذا صحيح مشاهد ولكنه
 لا يطعن على معنى الصداقة في شيء . بل هو يدل على أن الصداقة كبقية
 المشاعر النفسية مختلفة السكم والبقاء باختلاف الاستعداد . فمن الناس من
 يحب إلى الشوق بل إلى الهيام بل إلى الموت . ومنهم من يحب حباً لا يتعدى
 المتعارف في القدر ولا يتعدى أياماً أو أسابيع في البقاء . ومهما كان من
 الصعب التفريق التام بين عاطفة الصداقة وعاطفة الحب تفريقاً منطقيّاً

ووضعياً، إلا أننا مع ذلك نشعر في نفوسنا بتخالف بين الإحساسين وتباين في الكيف بين موضوعيهما . فالنفس التي لا يمكنها استعدادها إلا من السير في الحياة على مقتضى المصادفة الصرفة ، تنتقل في صداقتها كما تنتقل في إذواق المودة . قل أن نعم بهذه الصداقة وإن كان من الصعب علينا أن نظن أنه توجد نفس لم تذق لذة الصداقة قليلاً أو كثيراً تبعاً لمبادئ التربية وفطرة الاستعداد .

ما أشمل الرضا للنفس تجلس إلى نفس صديقة مجلساً ليس للتكلف في الأوضاع المادية ولا المشاعر المعنوية فيه أثر ! روحان اتفقتا في المشاعر وتم بينهما التفاهم في كثير من أمهات المبادئ العلمية والكمليات العقلية . لذة يعرفها الذي يعرف لذة الأحلام ، فكثيراً ما تجرد النفس من ذاتها في العزلة خيلاً تفضي إليه بما فيها وتبدى له ما خفي في طيات أعماقها من المقاصد ، وما رسب فيها من الآلام . فإذا وقعت إلى الصديق الموافق كانت هذه المفاجأة الحلمية اللذيذة شهى متاعاً وأقوى لذة من لذة الهواجس الفردية ومسارح الأحلام .

وما الصداقة بقاصرة في آثارها على هذه اللذة ، لذة الحديث الغذب والبعد مسوقة عن عذاب الحياة اليومية واثقال التكلف في أوضاع الأعمال . بل كثيراً ما كان صديقك مرآتك ترى فيها عيوبك وفضائلك جميعاً . بل طالما كانت الصداقة وتشيع الأصدقاء مصدراً للتفوق والنبوغ . نفعت

الصدقة الروح بتخليصها من سامة الوحدة وألم الوحشة ، ولكنها نفعت العلم والأدب أيضاً في كثير من الأحيان .

إحساس تلك هي الحاجة إليه ، من حقه أن يتعهد أمره في النفس لينمو فيها . فلا يغيرك لصديقك خطأ وقع فيه ، فما الكمال بمدرك في هذا العالم . بل يجب أن تكون معاملة الصديقين مبنية على حسن الاعتقاد وقاعدة التسامح

سلطة الأمة

لا يزال عندنا كثير من الناس المسؤولين عن مصر بحكم مراكرهم من العلم والمعرفة أو من الحياة والمال من إذا حادثته في سياسة البلد تقبض وجهه وأعرض عن حديثك بنظره ، كأنما جئت تلقى تحت نظره ميزانية الأفلاس تنطق له بأن ما على مصر أكثر مما لها — يقول لك الأمة ضعيفة لا سلطة لها . والأخلاق متحللة . والاحتلال لا يعمل شيئاً لترقيتها . فكل جهد ضائع وكل عمل غير نافع — يقول لك ذلك وزفراته يلحق بعضها بعضاً دلالة على أن نفسه تذهب على وطنه حسرات . ومع الأسف أن هؤلاء اليأسين هم بفضل مراكرهم قدوة للكثير من الشبان ينقلون إليهم هذا المعنى ، معنى اليأس الذى يبعد عليه أن يأتى بنفع البلاد . . على أن الحس يثبت لنا كل يوم بالأمثلة أن المرء من طبعه أن لا يقنط من أمر محبوب لديه . بل النفس مائلة للاعتقاد بوقوع ما تحب دائماً حتى من غير دليل . وترى الخصم أمام القضاة لا ييأس من كسب قضيته ولو كان مبطلاً علماً بباطله . وترى الموظف لا يقنط من الرق مهما قامت لديه الأدلة على عدم كفاءته وتصميم رؤسائه على عدم ترقيته . والتاجر الذى كثرت عنده البضاعة ونزلت عليه السوق ، لا يقنط من ارتفاعها ثانية أى من الربح المنتظر

فصل
الرياس
من رقى
الأمة

مهما دلت المقدمات على تقيض ذلك حتى يقع في الافلاس . ذلك بأن الإنسان من دأبه الرجاء . وإنه لحب الخير لشديد . فما أعجب من شيء عجبي لرجل يحب خير وطنه كما يحب الخير لنفسه أو أشد ، ومع ذلك سرعان ما يتسرب إليه القنوط من نجاحه لأول صدمة أو لظهور عرض من الأعراض الزائلة غير مناسب لوسائل الارتقاء .

استغفر الله من إن أقول إن في وطنية أولئك اليأسين دخلاً أو في قولهم زوراً . ولكن الذى أراه أن ما هم فيه من اليأس ليس نهائياً ولكنه متقطع يطوف عليهم كلما ظهرت بوادر الفشل ويذهب عنهم كلما ظهرت طلائع النجاح فتسميته يأساً فيها تسامح . وأولى بهذه الحال أن تعد ضرباً من التردد الذى ينتج دائماً عن عدم فهم وسائل الرقى فهما صحيحاً ومن الخطأ فى تقدير مركزنا تقديراً تاماً ، لا يدخل إليه الشك من أى مكان .

إن الحكم على حال مصر الحاضرة حكماً صحيحاً وفهم وسائلها للتقدم فهما تاماً والعمل لتقويتها عملاً متواصلاً ، يجعل المصرى لا يبالغ فى نتائج بادرة من بوادر الفشل ولا ينخدع بطليعة من طلائع النجاح . بل يستمر سائراً فى عمله الهادى المتين يأخذ من أسباب الفشل درساً نافعاً يتقى به أمثاله فى المستقبل من غير ضجر ولا فزع . ويستفيد من طلائع النجاح سروراً كامناً وقوة تشجعه على مضاعفة خطاه البطيئة الثابتة إلى الأمام .

الحكم على حال مصر يتوقف على الحكم على الاحتلال وعلى سلطة الأمة

وانت أجد سبباً لليأس من قبل الاحتلال الانكليزي ولا من اليوم القريب
الذي تتحقق فيه سلطة الأمة .

حكمنا على الاحتلال الانكليزي انما هو كما نحكم على نازلة من السماء
لا نستطيع رفعها ، ولكننا نستطيع أن نحولها إلى مصلحتنا وننقي أضرارها
كلها أو بعضها ، حتى ينقضي أجلها وتصح آثارها . ولقد صرح الاحتلال
بأنه يرمى إلى الغرض الذي نرمي إليه نحن من تقوية مصر حتى تقدر على
حماية نفسها والمصالح الانكليزية فيها من أن تعبت بها يد قوية . فما علينا
كألا أن نطالبه كل يوم بأن يقوم بما افترضه على نفسه وأن يسلك السبل التي
توصل إلى هذا الغرض المشترك . وعلينا نحن من جانبنا أن نكون أسرع
منه إلى سلوك تلك السبل وانشط إلى وضع المقدمات والعمل إلى النتائج
ونبالغ في ذلك حتى نسبقه إلى الاصلاح نحن بأنفسنا . لأننا على صدق
هذا الوعد نحن المنتفعون أولاً وبالذات . لأن الانكليز لهم غير الهند .
وليس لنا إلا مصرنا . //

من المعوقات لنا عن السير إلى الأمام أن تتجاهل وجود الإنكليز في
مصر بلادنا وهم موجودون بالحس . وننكر سلطتهم بالفعل جرياً وراء قواعد
القانون الدولي فنغير القواعد كل يوم . وسلطتهم الفعلية هي المرجع في كل
مسائلنا المصرية الداخلية منها والخارجية في يدهم كثير من الوسائل لرقينا .
فإعراضنا عن هذه الوسائل لا يفسر إلا بأننا نزهد في نتيجتها وهي القوة
والاستقلال . ولولم نكن جربنا هذا الاعراض لكننا معذورين ، ولكننا

أفترق
عن
السلطة
الداخلية

جربناه فكانت النتيجة ما رأيناه . فليس إلا أن نشتغل من جانبنا لمصلحتنا .
ونحملهم — والحالة الدولية الخارجية كما ترى — على أن يسيروا معنا لتحقيق
وعودهم ولنسهل عليهم الواجب الذى ادعوا أنهم يحملونه على عاتقهم . لو فهمنا
ذلك فهماً صحيحاً وطالبنا بالحاح أن يشاركونا فى التشريع وفى إدارة البلاد
على القدر الذى تسمح به الظروف الآن ، لاستعملنا وقتنا فى مصلحتنا دائماً
ولما تركنا حاضراً معطلاً من العمل والمستقبل ليس بيدنا ولا بيدهم ولكنه
بيد الله .

لو سلكتنا هذا الطريق ونجحنا فيه لحققنا مقداراً من سلطة الأمة نستخدمه
هو نفسه بالعمل للحصول على ما يبقى منها بالزمان .
فأما كون الأمة ضعيفة والروابط الاجتماعية متحللة وسلطة الأمة معدومة
فهذا قول سطحي صرف .

لا أستطيع أن أصدق أن أمة كأممتنا جامعة بين الاستعداد الاجتماعى
والاستعداد العلمى تفقد قوميتها أو سلطتها متى وقعت فى أعراض المرض
والضعف بل الواقع يشهد أن أمة كهذه يستحيل أن تحكم عن رغم إرادتها
أو تغلب على حريتها إلا إذا كان لرضاها من ذلك نصيب عظيم . وإن
سلطة الأمة موجودة بالفعل إن لم تكن معترفاً بها بالقانون ، موجهة إلى
غير طريقها الطبيعى لأن الأحكام للماضية قد وجهتها إلى الرضى بالاستبداد
قاعدة للحكم ، كما وجهت غيرهم من الأمم العربية إلى ذلك . فليس هنأ
إيجاد سلطه الأمة من العدم واستغفر الله — ولكن هنأ هو تحويل السلطة

الحالية التي تصرفها الأمة تصرفاً غير طبعى في خدمة غيرها إلى الوجهة

العليا وجهة الحرية السياسية، وجهة خدمة نفسها واحتمال مسئولية شؤونها.

ولا طريق لذلك إلا التعليم والتربية أن نؤغل فيهما إلى حد يجعل الاعتقاد

عاماً بأن السعى في تحقيق سلطة الأمة هو أول الواجبات الوطنية على الوطنيين.

إذا كان الاحتلال الانكليزي يستحيل أن يدوم إلى الأبد. وإذا

كانت سلطة الأمة لا تلبث أن توجه بالتربية والتعليم إلى وجهها العالى

النافع؛ وإذا كان عمر الأمة يعد بالأجيال لا بالسنين، فمن قصر النظر

وضيق الصدر وقلة التفكير أن ننظر إلى المستقبل بنظارة سوداء أو أن تأخذنا

الخفلة بالشطط فتتخطى المقدمات إلى النتيجة جهلاً بطبائع الوجود. بل

الواجب علينا أن نتكاتف جميعاً على انتشارال الأمة من مرأق الضعف وأن

نغرس اليوم معتقدين أن ما نفعله اليوم نلقاه غداً، وأن نصبر على مبادئنا

لا ننتظر أن نجنيها قبل أن تأخذ نماءها الطبيعي وتنتج ثمرها المطلوب.

في سبيل الارتقاء

يكاد يكون من المضحك أو من المحزن أننا حتى اليوم لا نزال نبحث في وسائل انتقالنا من الحال الأولى ، حال الضعف والجهل ، إلى حال من القوة والعلم ، متناسبة مع مقتضيات الزمن الحاضر ، وكان من اللازم أن نكون قد فرغنا من القواعد العمومية من عشرات من السنين وصرنا كل همنا في تطبيقها على الجزئيات اليومية . ولكننا مع الأسف لا تزال أكثر يتنا بين يأس من الإصلاح جهلاً بطرائقه ، وبين عارف طريق الإصلاح ، ولكنه يراه طويلاً المسافة بعيد النتيجة فينكب عنه إلى طريق خيالي صرف ، طريق التبحر وتنبيه شعور العامة تنبيهاً لا يجدون من قوتهم له منفذاً ، ولا من الظروف الحاضرة له مساعداً ، فينقلب أمرهم من التنبيه الإصطناعي إلى اليأس من كل شيء . [لأن تنبيه شعور الناس تنبيهاً يومياً مستمراً إلى سوء حالهم مع عدم الانتفاع بهذا التنبيه في الأعمال المشروعة الهادئة ، إنما يكون في ظروف الاضطراب ، وفي حال الاعتقاد بأن طريق الرق هو استعمال القوة اعتسافاً . وهذا طريق خطر السلوك عقيم النتيجة] .

[نحن لا نعرف في بلادنا أحداً معيناً يعتقد أن سبيل ارتقاءنا هو غير

السلام . فإن الأقلام في مصر مجمعة على أن السلام هو الطريق الوحيد حتى أشدها تحمساً ، وأدخلها في باب الطيش والتغريب . ولكن بعض الكتاب من الشبان أو غير المسؤولين عن شيء في مصر قد دأبوا على أن يضرروا الأمثال في كتاباتهم بالحركات الأجنبية لا على القدر اللازم السكافي في العبرة والتبصرة ، ولكنهم يكيلون منها كل يوم حتى بلغ من بعضهم عدم التبصر أن يبرر عمل الغادرين من غير أن يحسب النتائج التي تترتب على تبريره هذا والمثل السيئ الذي يضر به للشبان ، فيقع من حيث لا يشعر في المذهب السيئ من مذهب الذين يظنون أن مصر ترقى بغير السلام .

[أعترف أن مذهب التطور والارتقاء مذهب لا تأخذ طرائقه بالأبصار ولا تخلب الأبواب ، وإن كانت نتائجه باهرة لمن يستطيع العمل من غير جلبة والصبر اللازم لا تتظار نتائج العمل . والواقع أن الارتقاء لا يكون إلا بالتعليم والتربية ، فأى مظهر يسحر أنظار الجمهور من مظهر معلم كفء في مدرسته يصلح عقول الأحداث ويهذب طبائعهم ويحول ميولهم إلى حب الخير ، والجري في مجرى الحق والعدل ؟ فما هو إلا جيل واحد — لا يعد لحظة في حياة الأمة — حتى يتبدل الوطن بساكنيه متحللي الروابط ، رجالاً قادرين بعقولهم وأخلاقهم وقوتهم على إعلاء شأنه والتشبث بإسعادهم . نتيجة باهرة ، ولكن طريقتها منزوية عن العيون لا تبلغها حواس العوام ولا تحفل بها . بل لا تساوى عندهم في طريق الوطنية والعمل للوطن أصغر القيم ، بل لا تساوى في الوطنية أن يجرجروا بأيديهم عربة كاتب يكتب لهم ما يرضيهم

لا ما ينفعهم ، أو تقليد من يخرج من السجن في جنحة قذف ، وسام شرف وفخار . أعترف بذلك ولكني لا أعترف من جهة أخرى أن العوام هم الذين نأخذ عنهم سبل تقدم البلاد . فحسبنا ما نألمه إلى اليوم من الطباع التي نقلها لنا العوام بحبهم الظلم وتجايفهم طرائق التربية والتعليم . يفرحون بالتحمس الفارغ . ويفرقون من جرائه ، حتى إذا فشل قائدهم أصبحوا عليه أنصاراً يخرجون مركزه ويسيتون إليه ، ويولونه بعد الاحترام احتقاراً وبعد النصرة خذلاً .

طريق التربية والتعليم هو الموصل الوحيد ، ولكنه — كما يقولون — لا براق الرداء ولا حاضر النتيجة . فإنه كما لا يفرح به العوام جهلاً بنتائجه ، ومن جهل شيئاً عاداه ، كذلك لا تتفق مشاعر الشبيبة الغضة على اتخاذه والإيمان به ، لأن انتظار نتائجه يخالف مزاج الشباب . وأخص صفات الشباب العجلة . وأخص ميوله الظهور بالقوة والبأس من غير أن يحسب مقدار قوته . والشباب من كرمه وطيب قلبه يحب التضحية يأتيها بغاية السهولة من غير نظر ولا تدبر ، فهو بذلك يستسهل الصعب ، بل قد ينفى المستحيل . لذلك كان الشباب الغض أنفع الأطوار الإنسانية في المخاطرة ، ولكنه بقلّة تجربته وعدم اعتياده على حساب النتائج ، لا بد له ممن يحسب عنه ، ويبين له الطريق المنتج من الطريق العقيم .

كلنا يحب وطنه ، وربما كان الرجل أعمق حباً من الشباب . وكلنا يحب سعادته بسعادة وطنه ، وربما كان الكهل أشد حباً للسعادة ، لأنه أشد حباً

عنهم سنة
بالعوام

لهم
التي توضح
الحالة

للحياة ولكن من الذى يستطيع أن يثبت لنا أنه يوجد لا سعادتنا طريق آخر غير طريق التربية والتعليم. أى من ذا الذى يستطيع إقناعنا بل إقناع نفسه هو، بأن استعمال القوة ولو بمظهرها الأدنى ينفعنا ولا يضرنا، أو أن عندنا قوة تستعمل [لا أحد . ولكن أنصار الحركات — كما قال بعض المحامين الانجليز —

هم غير المسؤولين عنها من العجزة والنساء . وغير المفكرين فى العاقبة الطامعين فى الرقى السريع ، وهم شبان الضباط . على ذلك نكرر النصيحة مع اعتقادنا بأن الأقلام والألسن فى مصر مجمعة على أن سلوك العسف مهلكة للأفراد وللأوطان — بأن طريقنا هو التربية والتعليم .

قد يقال : رأينا كثيراً من المتعلمين يتمرغون فى مراعى الطباع العامة لا يهتمون بكرامتهم ولا يقيمون وزناً للفضائل الاجتماعية ، إذا كفهم الحق فتيلاً عافوه واجتنبوه . وإذا حملهم العدل كلفه عادوه . فكيف يكون طريقنا الوحيد هو التربية والتعليم ؟

قد يكون ذلك حاصلًا فى بلادنا وفى غير بلادنا مع فرق كبير فى النسبة بالضرورة . ولكن هذا لا يطعن على نظرية الارتقاء بالتربية والتعليم فى شيء . فإن العيب إما أن يكون من الاستعداد؛ ولا شبهة فى أن مستوى الاستعداد الأمي يرقى بالتربية والتعليم جيلاً عن جيل . وإما أن يكون العيب من طريقة التربية والتعليم نفسها ، فلا نمكف إلا إصلاحها وتوجيهها إلى غرضنا منها . وعلى كل حال ، فإننا إذا جعلنا التربية والتعليم غرضنا ووجهنا إليهما العناية التى ننفقها عن سعة فى غيرهما مما لا فائدة فيه قدرنا ولا شك على خدمة أنفسنا وسلكنا سبيلنا إلى الارتقاء .

الحرية

لو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية . ولكن غذاءنا الحقيقي الذى به نحيا ومن أجله نحب الحياة ليس هو أشباع البطن الجائعة . بل هو غذاء طبيعى أيضاً كالخبز والماء ، لكنه كان دائماً أرفع درجة وأصبح اليوم أعز مطلباً وأغلى ثمنًا . هو إرضاء العقول والقلوب ، وعقولنا وقلوبنا لا ترضى إلا بالحرية .

إنا إذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئاً كثيراً . إنما نطلب الغذاء الضرورى لحياتنا . نطلب أن لا نموت ، ولا يوجد مخلوق أقنع من الذى لا يطلب إلا الحياة ووسائل الحياة . كما أنه لا أحد أقل كرمًا من ذلك الذى يضمن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة .

لست أعجب من الذى يستهين بحياة الرجل فيستعجل عليه القدر المحتوم . ولكنى أعجب من الذى يبالغ فى الرحمة بالإنسان يستحميه شعبان ريان يفهم جيبه بالنقود معطل الحرية ، قد ضرب . بين عقله وبين الأشياء والمعانى بحجاب ، فلا يتناولها ، وحيل بين مشاعره وبين موضوعات غذائها فلا تتحرك بل تموت . أعجب من الذى يظن الحياة شيئاً والحرية شيئاً آخر ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية هو المقوم الأول للحياة ولا حياة إلا بالحرية .

أجل . إن المرء يحفظ حرية الفكر وحرية المشاعر أى يحفظ حرية الطبيعية حتى فى غيابة السجن . يحفظها فى كل حال هو عليها ما دامت روحه فى جسده . إنه خلق حراً . حر الإرادة . حر الاختيار بين الفعل والترك . حراً فى كل شئ حتى فى أن يعيش وفى أن يموت . غير أن هذه الحرية الطبيعية لا فائدة منها إذا تعطلت من آثارها . فالذى سجن والذى منع الكلام : والذى منع الكتابة ، كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم ، ولكنهم فقدوا الانتفاع بها أى فقدوا بذلك الحرية المدنية .

كذلك الذين تركوا أحراراً كما خلقهم الله . أحراراً يقولون ويكتبون ما يشاءون ويعملون بالمعروف ما يشتهون . ولكنهم ليس لهم فى إدارة جمعيتهم إرادة محترمة . أولئك لهم الحرية الطبيعية والحرية المدنية ، وهم محرومون من الحرية السياسية .

لا نريد بذلك أن نتصدى للتعريفات الاصطلاحية لأنواع الحرية . ولكن جئنا إليه عرضاً للتدليل على أن الحرية المعطلة عن الاستعمال هى فى حكم المفقودة وأن الحرية الطبيعية الملازمة للإنسان لا يصح أن تسمى حرية ، إلا إذا كان ميسراً له استعمالها . أرايت أن المرء يرى الطريق بعينه المعصوتين ، ويأكل ويشرب ويبطش بيديه المكتوفتين . لكن العين المعصوبة واليد الموثوقة كتلتاهما فى حكم المدومة . إنما يكون المرء حراً بمقدار ما لديه من وسائل استعمال هذه الحرية . وإنما يكون حياً بمقدار ما جاز له

من الاستمتاع بالحرية . فالحرية الناقصة حياة ناقصة . وفقدان الحرية هو الموت . لأن الحرية هي معنى الحياة .

طبعنا على حب الكمال في حياتنا ومعادن كل العوارض التي تعرض لنا في طريق المثل الأعلى للمعيشة المستكملة وسائل الحرية وآثارها . ولا خيرة لنا فيما طبعنا عليه . وسواء كان هذا الشوق الطبيعي إلى حياة الحرية مصدر سعادة أو مصدر شقاء ، فإنه على كل حال نار تأجج بين ضلوع الحى لا تبرد أو تصل به إلى المرغوب . أجل إن المثل الأعلى ليس نقطة ثابتة ولا غرضاً محدود المسافة يمكن ، باوغه بل كلما بلغناه انتقل شبحه أمامنا إلى نقطة أخرى على أبعد مرمى النظر لسنا بالغيه ولا منصرفين عن التشبث بإدراكه . بل يسوقنا إليه حاجة لا قبل لنا بالصبر عن قضائها ولو كلفتنا أن نركب متن التعسف .

لذلك لا يزال يستغلق علينا فهم الاباطيل القديمة التي كانت الغطرسة الجنسية تأخذ بها الكتاب ليستقطوا في هاوية التناقض .

يقولون إن بعض الناس خلق للسيادة أبداً وبعضهم خلق للعبودية أبداً . ولا نزال نرى هذا الخطأ يتردد في آراء الساسة المستعمرين في هذا الزمان على صورة أقل شناعة ، وعبارة أكثر اثلاقاً مع مدينتنا الحديثة ؛ يضعون أصابعهم في أعينهم إذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات الصادقة هي هذه الجزئية : (بعض الإنسان لا إنسان)

كذبت فلسفتهم وصدق الذى يشعر به كل إنسان منا فى نفسه من الميل

إلى الرق في كل شيء وإلى الحرية قبل كل شيء . صدق هذا الأثر الذى
نجده فى طليق الأسر أو السجن يوم اطلاقه . وفى محاولة المعقول أن ينشط
من عقالة . صدق ذلك الألم الذى يجده ذو الفكرة العلمية من حبس حريته
عن التصريح بها فتظل تجول فى نفسه، ويغلى فى نفسه حب ابدائها فى صدره
يقلق خاطره ويكد ضميره ويحتوى على كل مشاعره ، حتى يفضل الموت
فى ارضاء هذا الحب على الحياة فى كتمانها **[وكم** عالم استحسب الموت على الحياة
فى سبيل حبه لحرية اقتناعه العلمى . فمنهم من قتل ومنهم من حرق ومنهم
من حبس أو عذب . وجلهم من تلك الأمم التى يقولون أنها خلقت لغير
السيادة . فإذا وجدت عبداً لم يؤثر الحرية على العبودية ولم يطب نفساً بالعتق
من الرق، فذلك مثل من أمثلة التشويه النادر فى بنى الإنسان وليس قاعدة
يصح الأخذ بها . وحسبنا أن نرى الأدلة الحسية قائمة على أن حفظ الوجود
الذاتى المجرد عنه آثار الحرية ليس أعز على نفس الإنسان من الاحتفاظ
باحترام حريته . وأن الذى يراجع ماضى العالم لا يجد أمة من الأمم المخلوقة
للعبودية — كما يزعمون — الا قاتلت عن حريتها . وإذا كان أصدق
المعلومات هى تلك المعلومات التى تقدمها لنا المشاهدة الواقعة، ومادامت هذه
المشاهدات تدلنا على ما ذكرنا بعض أمثلته ، فالإنسان — على الرغم من
فلسفة الاستعماريين — حر بطبعه ميال إلى الحرية ، ميال إلى الترقى فيها
إلى المثل الأعلى ، وأنه لا تفاوت بين أفراد الإنسان الا فى تقدير هذا المثل
الأعلى وفى سهولة الوسائل الموصلة إليه . **[**

[الحرية طبيعية، وميل الناس إلى تحصيلها طبيعي بالضرورة، يشتد ويظهر مع القوة الحيوية ويضعف وتخذ آثاره مع الضعف]. فكما أن القوى لا يموت جوعاً كذلك لا يصبر على الحياة البعيدة عن المثل الأعلى للحرية. ولقد أصبحنا في بلادنا ندرك الحرية بمثلها الأصلي الذي يأتلف مع شرف الإنسان في هذا الزمان. فقد أصبحنا نمتعض من كل فكرة ومن كل قانون ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية المدنية في غير الحدود المتفق عليها في أعلى البلاد مدنية، وأصبحنا كذلك نرى أن الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الأمة هي حكومة الدستور. [ومنا من لا يخشى أن يصرح بأن استقلال الأمة هو الطلبة الكبرى التي يجب أن توجه إليها قوى الشعب بأسره، فلم يبق علينا للتدرج في مراقي الحرية والتقرب من مثلها الأعلى المتفق عليه بيننا، إلا الوسائل المنتجة. فإن إرادة الأمر شيء والقدرة عليه شيء آخر].

[أما القوة فإن طبيعتها تختلف في كل زمان ومكان تبعاً لطبيعة عيشة الأمة واعتقاداتها الدينية وعاداتها وأخلاقها، ونتيجتها تختلف دائماً باختلاف طبيعة الوسائل التي يمكن استخدامها. وعندنا أن أول مظهر للقوة هي القوى المعنوية قوة الحرية العلمية. فإن الآراء العلمية ليس من شأنها أن تجد من القوة القاهرة خصوصاً في الأزمان الحاضرة معارضة تذكر. فإذا استخدم المتعلمون إرادتهم في اظهار حريتهم العلمية، كان لهم من ذلك مرانة تنفعهم في تربية اخلاق الشعب وتعويده على حرية الرأي والصبر على

الأذى الذى ينتج دائماً عن حرية الرأى ، سواء أكان ذلك من الحكام أم من المحكومين.

[إن الذين ييخلون علينا بالقرب من المثل الأعلى من حريتنا التى أتانا الله أيها من فضله ، يجدون من أمثلة تقصيرنا فى اظهار حرية الرأى فى العلم وفى السياسة ما يحتجون به فى إرادتنا على البقاء على ما نحن عليه . فإذا أحسوا من حريتنا فى الآراء العامة الإرادية قوة لا يقف أمامها استهزاء الجهلاء ولا غضب الكبراء ولا استدرار المنافع الخسيسة ، لا يجدون مندوحة من التخلية بيننا وبين طريقنا إلى المثل الأعلى لحريتنا . ومن قصر النظر أن يظن أن هذه القوة المعنوية قوة التمسك بالحرية والتمسك على نصرتها غير كافية فى تقريرنا من مثلها الأعلى . أقول وأؤكد أنها هى وحدها كافية فى إنالتنا طلبتنا ، فلنرض نفوسنا على الاستمسك بها ولننتظر النتيجة .

[إن تقدمنا فى نيل قسطنطين الطبعى من الحرية يستحيل أن يوجد ولو كانت فى أيدينا أكبر معدات القوة الوحشية ، وكان عددنا اضعاف ما نحن عليه ، إذا كنا لا نتخلص من وصمة عبادة الآراء والأفكار من غير تمحيض اعتماداً على مكانة قائلها ، وإذا كنا لا نقطع بأيدينا تلك السلاسل التى قيدت عقولنا والاهوام التى أفست علينا الاستفادة من المبادئ الجديدة .

أننا إذا جربنا أن نرفع منار الحرية فى الميدان الذى لنا فيه حرية العمل وليس لنا فيه مزاحم ولا شريك كان ذلك فاتحة خير لإظهار شئ من القوة الضرورية لظهور الحرية وتأبيدها .

تضامنا

إذا كان العلم بقواعد جمعيتنا موجوداً بالفعل بين أيدينا وتحت نظرنا، فمن إضاعة الوقت أن نطلبه عند غيرنا. وإذا كانت أساليب بيانه على أطراف ألسنتنا، فمن التعسف أن نبحث في الكتب لنعثر عليها. فإن العلم الصحيح ما جاء من طريق المشاهدة، وخير البيان ما كان مألوفاً عند جميع الطبقات.

لا شبهة عند أحد منا في معنى كوننا أمة متميزة عما عداها بمشخصات خاصة بنا، قد لا يشركنا فيها غيرنا من جميع الأمم. لنا لون خاص وميول خاصة ولغة واحدة شاملة. ودين للأكثرية واحد وكيفيات في تأدية أعمالنا ودم يكاد يكون واحداً يجري في عروقنا، ووطننا محدود الجهات بحدود طبيعية يفصلنا عن غيرنا، لا بحدود وهمية كما هو الأمر في بعض الممالك، ولكن بحدود طبيعية تكاد تجعلنا في معزل عن عدائنا. لنا تاريخ قديم طويل ذو مراتب وأقدار اتصلت سلاسله بحلقات متينة، فأصبحت سلسلة واحدة أولها قبل التاريخ وآخرها هذه الحلقة التي نقطعها، دائرتها في عصرنا هذا وفي سنتنا هذه، فنحن بذلك فراغة مصر ونحن عرب مصر ونحن ممالك مصر وأتراكها، ونحن المصريون. فما نحن تحت حكم العائلة

الخدوية ، إلا نحن نحن بأنفسنا تحت حكم العائلة الأولى الفرعونية أو تحت حكم من قبلها أيضاً بشيء من التطور الزمنى قضى به التغيير العالمى المستمر ، حافظين لكثير مما ورثناه من آباءنا الأقربين والأبعدين . كل هذه الشخصيات القومية المادية والمنعوية الوراثية والكسبية ، من شأنها أن تجعل بيننا رابطة الجنسية أقوى منها فى أكثر الأمم . وأنها كذلك لولا ما يراه النزر اليسير من حب الانتساب إلى العرب دون الفراعنة أو الفراعنة دون العرب أو الترك دون الشركس أو الشركس دون العرب من غير أن يعرفوا أن العوامل الموضعية ، عوامل الإقليم والقراية والنسب والاشتراك فى المنافع ، قد أخرجت من أهل مصر عجينة واحدة هى أم هؤلاء المصريين على السواء ، الأبيض منهم والقمحى والأشقر والأسمر . كل أولئك أبناء مصر ، سعادتها لهم وشقاؤها على رؤسهم . منافعها إلى جيوبهم ، وهمومها على مناكبهم لأنهم جميعاً هم المصريون .

• صيغتنا فى هذا التضامن القومى صيغة عامة لا يوجد لسان مصرى لم تجر عليه سورتها . تعرفها طبقاتنا وهى من أمثالنا الأمية الشائعة فإننا نقول . « أنا وأخوى على ابن عمى » « وأنا وابن عمى على الغريب » . تلك هى الصيغة التى تلوكها ألسنتنا فى كل مجلس والتى أشبعناها فهماً ، فهى لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى الألفاظ الضخمة غير المألوفة والمعانى المترامية الأطراف غير المحدودة فى الأذهان . كمعانى المشابهات والفروق وحدود دوائرها . والتشبيث بالتزامها وإلزام الناس بفهمها على الطريقة

المدرسية ، بل صيغتنا المعروفة القريبة تغنى عن الصيغ البعيدة .
والعبارات العالية .

العائلة هي الوحدة في تأليف الأمة . والعائلة لا تقوم إلا بالعصبية .
ومثل العصبية في العائلة الجنسية في الأمة . فالأخ الأقرب ، الأخ في العائلة
والذى يليه الأخ في القومية . فلا جرم أن يكون هذا المثل العائلى هو بعينه
المثل القومى . إذ لا نعرف أن تضامن الأخوين من أب واحد مؤسس إلا
على المنافع المعنوية والمادية المشتركة بينهما والجاذبية التى ولدتها بينهما المشابهة
في الصورة والنزى والميول ووحدة التربية . وما تضامن الأخوين في
المصرية إلا مؤسس على تلك الأسباب بعينها . وما الأسباب المتشابهة إلا
منتجة نتائج متشابهات كذلك . وما هذه المشابهات إلا الجنسية أو العصبية
القومية أو المصرية . فبعداً لمصرى لا يحب المصرى أكثر من جميع
المخلوقات ، ولا يحترم المصرى أكثر من غيره ، أو لا يعتد بأن المصرى هو أخوه
الحقيق بموضوع حنانه وشفقته ومحط خيره ومعقد رجائه ومحل مساعدته .
إن العمل لعصبيتنا الجنسية ضرورى لنا ، لأننا يستحيل علينا أن نعيش
أفراداً . فالذى يذكر العصبية المصرية آناء الليل وأطراف النهار هو الحقيق
وحده بشرف الإنتساب إلى هذا البلد الشريف . والذى ينفع المصرى ، إنما
ينفع نفسه في شخص أخيه .

قد يقال ما بالنا نظرى العصبية الجنسية ونشوق إلى منافعها الباهرة
ونجعلها أساساً ضرورياً ، للحياة في حين أن كثيراً من أساتذة التمدن

الحديث أخذ يهدم بمعول العلم في أساس العصبية الجنسية ويدعو إلى قطع سلاسل الفوارق بين الأمم المختلفة متوسعاً في معنى الإخاء الإنساني ، مجتازاً حدود الأوطان ومعاني الأثرة الوطنية ؟ نقول قد يكون ذلك إذا تم أَلَيْقُ بشرف الإنسان وأنفع لهذا العالم ، ولكننا نحن المصريين ونحن أمة ناهضة تريد أن تعيش قبل كل شيء عيشة استقلال متواضعة لا مدعية أنها تقود العالم أجمع إلى منفعه — نقول ونحن كذلك ، لا نستطيع أن نبتدىء بتعاليمنا من الآخر . فإن ابتكار « الانتيرناسيوناليزم » أو توحيد ميول الجنس البشري ومنفعه ، هي بالفعل حلقة أخيرة لسلسلة رقى طويل في الأفكار والأعمال . ولكل أمة على قدرها رأى هاد .

لذلك نقرر بأن الذي يريد أن يطمئن في داره فليعمل لنماء روابط الجنسية المصرية . والذي يريد أن ينجح في الأعمال الحرة فليعمل لنماء الجنسية المصرية . والذي يريد أن يكون من الموظفين مسموعى الكلمة فليعمل لنماء الجنسية المصرية . والذي يريد استقلال مصر فليعمل لنماء الجنسية المصرية . ذلك هو أساس القوة والقوة ركن الحياة وشرط البقاء .

الجنسية المصرية عند
تفصيل البصيرة الوطنية

البقاع . فالذى يفرط في شرف مصر ويقول في المجالس أنه منتسب إلى غيرها ، يؤخر بمقدار مركزه في الجمعية المصرية سير التقدم المصرى المطلوب ويكون بذلك جانبا على بلاده جانبا على نفسه .

وإنه ليسرنا أن هذا الفهم قد أصبح عاما في الأمة بعد أن اعتقد الناس أن رقى مصر لا يجيئها من الخارج بل هو نتيجة عمل أبنائها وأن الانتقال على غير المصريين في حل المسألة المصرية لمصلحة مصر ضرب من العبث . وليس العمل على هذه النظرية جديداً في مصر . فإن محمد على باشا الكبير كانت أقواله الماثورة وأعماله المشهورة تدل بجملة على أنه يلاحظ فيها تطبيق نظرية القومية المصرية . وجرى على سننه خلفاؤه الأمراء وكثير من ذوات مصر وأعيانها وأخذ الجيل الجديد الحاضر يفضل البضاعة المصرية على غيرها بقدر الإمكان ويرغب في تمصير المدنية الأوروبية على قدر الإمكان ، ويؤثر منفعة المصريين جهد المستطيع . كل ذلك يبشر بأن القومية المصرية ستستأثر في عهد قريب بقلوب المصريين ، ولا يكون منهم إلا من يرى من الشرف العظيم الانتساب إلا هذا الوطن المحبوب .

المصرية

سئل أحد علمائنا البلاء فقليل لما المصري ؟ فقال : المصري هو الذي لا يعرف له وطناً آخر غير مصر . أما الذي له وطنان يقيم في مصر ويتخذ له وطناً آخر على سبيل الاحتياط ، فبعيد عليه أن يكون مصرياً بمعنى الكلمة .

كان من السلف من يقول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين . وتلك قاعدة استعمارية ينفع التحدى بها كل أمة مستعمرة تطمع في توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حوالها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذي يفتح البلاد باسم الدين ، ويجب أن تكون أفراده كاسيين جميع الحقوق الوطنية في أى قطر من الأقطار المفتوحة ليصل بذلك إلى توحيد العناصر المختلفة في البلاد المختلفة حتى لا تنقض أمة من الأمم المفتوحة عهداً ولا تنهزم بالسلطة العليا ولا تتطلع إلى الاستقلال بسيادتها على نفسها . أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضاً لاستعمار الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية في الاستعمار ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لا المهاجمة ، والاحتفاظ بسلامة كل أمة في بلادها من أن تمحى

ناتبة اليوم
ناتبة
الزمن
الزمنية
الزمنية

جنسيتها ويفنى وجودها. فإن أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال.

أما الآن والحال كذلك فقد أصبحت هذه القاعدة لا حظاً لها من البقاء لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الإسلامية واطماعها. فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود. وذلك المذهب هو مذهب الوطنية.

[على هذا النظر، يجب أن نقرر أن المصريين هم أهل هذا القطر المصرى الأصليون وكل عثمانى أقام فيه على سبيل القرار واتخذوه وطناً له دون غيره من الأوطان العثمانية الأخرى. وليس هذا المذهب جديداً، بل هو مذهب القانون المصرى من زمن طويل.]

هؤلاء المصريون من حقهم أن يكون لهم الانتفاع بمصر أولاً وبالذات، وعليهم الواجبات القومية المكتوبة منها فى القوانين والفروض بالعرف. عليهم أن تكون محبتهم لها خالصة من كل إشراك. وتقانيهم فى خدمتها بعيداً عن أى اعتبار آخر. عليهم أن تدل أقوالهم وأعمالهم على أنهم لا دار لهم إلا مصر ولا عشيرة لهم إلا المصريون. أولئك هم المصريون. إلا الذين يظنون أن مصر مستغل وقتى يستغلونه، لهم غنمه وليس عليهم غرمه، أو الذين يتمثل الوطن فى عقولهم بصورة تجارية لا يخالطها أثر من آثار العواطف القومية. أولئك يصعب على مصر أن تتخذهم أبناءها وتلقى على كواهلهم همها فى الحاضر واطماعها فى المستقبل.

لا يفهم مما أقول أننا ندعو إلى التفريق بين العناصر المؤلفة لسكتة السكان المصريين . بل على ضد ذلك ندعو للجامعة المصرية كما دعونا لها من قبل . ندعو الذين يتبرمون بالجنسية المصرية التي كسبوها بالاقامة في مصر ، أن لا يفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب إلى هذه الجنسية الشريفة . يقيمون بأجسامهم في مصر وعقولهم وقلوبهم تتجه غالباً خارج حدودها إلى الأوطان التي ضنت عليهم بخيرها ولفظتهم من أرضها . ندعوهم أنهم ما داموا مصريين أن يقطعوا ميولهم عما عدا مصر ، لأن الوطنية — وهي حب الوطن — لا تقبل الشرك ولأن الرق المصري محتاج لعقولهم الراجعة وسواعدهم القوية .

مصري
مصر
يا مصر

الوطنية
لا تقبل
الشرك

سيقولون اننا بما نقرر لا نأتي بشيء جديد ، ولكننا نذكر الأوليات الوطنية التي يجب أن نكون قد فرغنا من أمرها من زمان طويل . نعم ونحن نقول ذلك مع القائلين . ولكن هذه الأوليات الوطنية لا تزال مع الأسف غير معمول بها ، لدينا منها مثلاً شائعاً جداً يدل في عمومها على نقص إدراك الوطنية المصرية وانحطاط في المطامع المصرية . فلو رجع كثير منا إلى أنفسهم ونظروا في أعماق ضمائرهم وراجعوا ما يقولون في مجالسهم وتدبروا أعمالهم ، لرأوا أن بعضنا لا يزال يحب الانتساب إلى بلاد العرب أو إلى سوريا أو إلى تركيا دون مصر . وهذا الميل يبين في القول ويتجسم في العمل . فمن ذا الذي يستطيع أن يسمى

هذا الميل ونتأججه وفاء لمصر؟ ومن ذا الذى يستطيع من غير تسامح أن

يسمى من يحبون غير مصر مصريين؟

مصريتنا تقضى علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا لانوجه وجهنا شطر غيره.
ويسرنا أن هذه الحقيقة شائعة فى الأكثرية المصرية ، لأن هذا الشيوع
سيوشك أن يعم جميع المصريين من غير استثناء .

آمالنا

أملنا في المستقبل هو الخير . ويطمعنا في ذلك أن مصر هي ، أول ما سقط من دول الشرق وهي كذلك أول ما نهض إلى الأخذ بالتربية والتعليم الحديثة ، وتنفيذ النظمات البيروقراطية على طريقة أقرب إلى العدل والرفق ، فأصبحت بذلك أغنى الأمم الشرقية ثروة وعلماً وأشدّها رابطة جنسية ، وقد كانت ولا تزال أوغلها رسوخاً في الصفات المدنية . كل ذلك يشجعنا على الاعتقاد بأننا سائرون إلى الأمام وأننا لا ينقصنا حل مسائلنا المصرية خلا يتفق مع مصلحتنا من جميع الوجوه إلا العمل الجد والوقت الكافي .

لدينا كل وسائل العمل لمصلحتنا ، فلا يعوزنا الذكاء ولا الوطنية ولا الاستعداد ولكن يعوزنا شيوع الاعتقاد بأن مصر لا يمكنها أن تتقدم إذا كانت تجبن عن الأخذ بمنفعاتها وتتواكل في ذلك على أوهام وخيالات يسميها بعضهم الاتحاد العربي / ويسميها آخرون الجامعة الإسلامية . فقد أعذرنا العقل وأبان لنا أن مصر لا تنجو من خطر التأخر والفوضى إلا بقواها الذاتية وأعذرتنا الحوادث إذ أنذرتنا بأن الاتسكال على غير المصريين في تحقيق آمال المصريين ضرب من اللعب بالمصالح ، وحال من أحوال العجز والقنوط .

لم يأت لنا الماضي بمثل واحد يدلنا على أن أمة من أمم العالم ساعدت مصر وحمتها من المصائب التي كان يجرها عليها طمع الأقوياء في ثروتها . وفي مركزها الجغرافي النادر المثال . كذلك لم يأت لنا الماضي — في غير مقتضيات الموازنة الأوربية — أن أمة تنظر من سماء قوتها إلى أمة ضعيفة تأخذها بها الرحمة فتطعمها وتسقيها وتدفع عنها مغارمها لوجه الله تعالى . ولكن الذي نعرفه من الماضي أن العالم في حال حرب مستمرة يصلى نارها الأحياء على السواء والغلبة فيها للأقوى . والأسر ثم الرق للضعيف . ومن الخطأ أن يكون مقياس الضعف والقوة في الأمة هو مقدار عدد النفوس أو الثروة . إنما مقياس عظمة الأمة هو صفاتها العامة الضرورية للنجاح في الزمان الذي تعيش فيه . كان عدد أهل أثينا في أوقات مجدها هو بعينه عدها عند سقوطها ، ولم يتغير فيها إلا الصفات التي هي ملاك القوة في الأمم . ولسنا في حاجة إلى استحضار التاريخ القديم فإن الحاضر المشاهد في النسبة بين عدد النفوس في الأمم المستعمرة وبين عدد النفوس في مستعمراتها لا يدع للشك مجالاً في أن الكثرة والثراء ليساهما العلة الأولى في عظمة الأمة وقوتها . ولكن القوة والعظمة في عدد الرجال المهذبين أو الصفات السامية والعقول المنتجة .

لكل زمان ولكل مدنية خواص في الأخلاق والميول تكون هي علل النجاح . ولقد دلتنا الأمثلة اليومية على أن الأمة التي لاتسير في تيار عصرها بل تقف جامدة على قدميها لا ينتظرها العالم في سيره إلى الأمام ، بل يتركها

منقطعة لا تتجدد فيها قوى الحياة ولا تستطيع أن تأخذ بخواص النجاح في الزمن الجديد ، فتقع فيما يشبه الفناء وذلك حظ الضعيف .

في أنفسنا قد رأينا أن كل ما وقعنا فيه من شر الذل وفقد الاستقلال من عدة قرون ، إنما كان سببه تفريط المصريين في الاستمسك بالصفات التي كانت يومئذ ضرورية لبقائهم أحراراً . وها نحن أولاء أصبحنا بالتربية الجديدة والأفكار الجديدة نسمع في قلوبنا ديب الطمع في استقلالنا ببلادنا وتأخذنا الغيرة من الشعوب التي شبت في هذا الزمان الحاضر ورفعت رأسها بين الأمم ولم تكن من الشعب المصرى ولا قلامة ظفر . فمن الطبيعي أن يكون نهوضنا متناسباً مع أطامنا وأن يكون أول ما يجب علينا أن نتحرى في أنفسنا صفات الضعف ننفى عنها ونحل محلها صفات القوة أو أسباب الرقى .

إننا مهما كان مقدار حبنا للصفات التي ورثناها من الماضي ، يستحيل علينا أن نظن أن علة تأخرنا هو شيء آخر غير تلك الصفات .

ومن المستحيل أن يكون الضعف والقوة كلاهما معلولا لسبب واحد في آن واحد باعتبار واحد . فربما أوقوتنا رهينة بنفى أسباب الضعف عنا مهما كانت هذه الأسباب أو تلك الصفات داخلة في مشخصاتنا وممزجة بعاداتنا وأخلاقنا .

سيقولون هل تريدوننا على أن نزل عن أفكار آبائنا في تكييف المصالح المصرية ، ونترك عاداتنا في حب الاتكال على غيرنا والتباهى بجيراننا

واعتبارنا في نظر أنفسنا أقل الشعوب مما يجري على ألسنتنا في الأمثلة وفي
 المجالس، وما يظهر على حالنا من معاملة غيرنا، ونأخذ بصفات التمدين الحديد،
 هذا التمدين المادى تمدين المنافع والمبالغة في حب الكسب واستخدام العقل
البشرى والعلوم المختلفة في تحصيل اللذائذ الشخصية والاطاع الاستعمارية؟
 انكم تريدوننا على أن نتغير وفي التغيير نزول عن الشخصية وفناء للأمة؟؟
 نعم . فإننا جربنا أفكار سلفنا الصالح في هذا الماضي القريب فما كانت
 النتيجة إلا ما نحن فيه . فلم يبق إلا أن ننزل عن الأفكار والصفات التي
كانت سبباً في تأخرنا ونأخذ في التغير والتطور حتى نستطيع المزاومة في
معتزك هذه الحياة المدنية، أو بعبارة أخرى حتى يرجع إلينا ما فقدناه من صفات
القوة أو من قوة الأخلاق محافظين دائماً على عقائدنا الدينية الأولى التي كان
 عليها علماء الدين الأولون . قانعين من مشخصاتنا الحالية بما يكفل التمييز بيننا
 وبين الأمم الأخرى تلك الشخصيات التي لم يثبت لنا أنها كانت سبباً في
 تأخيرنا، ولن تكون مثل لغتنا العربية وعاداتنا في حب الضيافة والمواساة
 وأريحية الجود وبقية الصفات التي امتزنا بها في حسن العشرة والعادات
 البريئة التي لها طابع يميزها عما عداها كعاداتنا في شهر الصوم وكيفية
 احتفالنا بالأعياد والموائد العلنية في المآتم والأفراح !! الخ الخ
 ولكن الذي يجب علينا أن نساعد المدنية الحاضرة على نفيه عنا هو
 الصفات التي تولدت من نقص الاعتقاد بمصريتنا، أي بأن لنا وجوداً خاصاً
 ومنافع خاصة يجب علينا تحصيلها بصرف النظر عما إذا كان هذا السعى

يأتلف مع أفكارنا القديمة أو يختلف عنها — وأن تنشبت بحقوق الشعب المصرية واحترامه فلا نسمح لخواص منا أن يسبوه باظهار اليأس منه والقنوط من رقيه ، ولا نعوانا أن يجرى على ألسنتهم تفضيل غيره عليه . وأن نحارب الجحود على الماضي في إمساك المرأة المصرية على اتباع المعروف في الماضي القريب ، بل نسهل لها العمل هي أيضاً لمصلحتها ومصلحة المجموع وأن نأخذ أسباب القوة عن التمدن الجديد ، طائعين لا كارهين ، والزمان وحده كفيل بأن يصنع الواردات الأوروبية بصبغتنا المصرية . لا شيء من ذلك يأتي بالنتيجة التي يخاف عقلاؤنا منها ، نتيجة أننا نفنى في غيرنا . نحن لا نفنى في غيرنا أبداً . ولكن قديمنا يفنى في حاضرننا وحاضرننا يفنى في مستقبلنا كما هي سنة التطور في الوجود .

أقدم كل هذه المقدمات لأقرر أن آمالنا من المستقبل شعب جديد، يكون أقدر منا بصفاته على تحقيق أطماننا القومية .

وعلى هذا الجيل الحاضر أو الشعب الحاضر أن يسهل للجيل الآتي سبل القوة وأسباب التطور ليحقق صبغتنا القومية وهي مصر المصريين .

التقليد

تعالى بديع السموات والأرض . لا ترانا الا مقلدين حتى في ابداعنا .
 في أزيائنا نبدع المودة على مثال قديم نأخذه كله أو نأخذه ممسوخاً أو محسناً
 أو نأتى بها على طريق التلفيق بجمع المثل الواحد من مثلين قديمين أو من
 ثلاثة مع تحسين في الوضع أو تشويه فيه . وتلك طريقة إبداعنا في الأزياء .
 في الماء كل تنتقل ألوان الطعام وصنوف الآنية وطقوس الخدمة من بلد
 إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة، يأخذها الخلف من السلف ويضيف إليها شيئاً
 من مقتضيات عصره ويصبغها بصبغته فتأخذ طابعاً جديداً يسمح للمقلد بأن
 يسميها باسم فيقولون المطبخ الشامي والمطبخ المصري والتركي والفرنساوى :
 الخ ...

تلك طريقة الابداع في الماء كل .

في العادات العامة اليومية كيف ينهض المرء من نومه وماذا يصنع
 للاستعداد للعمل من تطهير البدن من أعراض النعاس وتطهير النفس
 بالتوجه إلى الله استفتاحاً للحياة الجديدة في هذا اليوم الجديد . وكيف
 ومتى يذهب إلى عمله . ومتى يعود منه إلى راحة تفرق بين التبعين . وتحلى
 ما بين المرأتين . ومتى ينقضى وقت الراحة إلى العمل . في هذه العادات

اليومية وفي العادات العامة الدورية - المواسم والأعياد - ماذا يلبس المرء وبماذا يترزين على الطريقة اللاتقة بالطبقة التي هو جزء منها . وكيف يحى غيره . ومتى تكون التحية وكيف يشترك مع الجمهور في أداء الشعائر القومية . في كل هذه العادات اليومية والدورية نحن نقلد اسلافنا تقليداً مشكلاً بأشكال زمام العصر الذى نعيش فيه ، مشوباً بنتيجة تطور أفكارنا الحديثة . تلك طريقة الابداع فى العادات .

فى لغتنا نأخذ بالتلقين الألفاظ المفردة وكثيراً من التراكيب ثم تأتى الحاجات العصرية يتطور بها اللفظ فى الدلالة على معناه بل تتغير رويداً رويداً وجوه الدلالة فيتكلم ويكتب بعضنا على مثال بعض بتغيير قليل اقتضته شخصية المتكلم أو الكاتب وقوة نفسه أو ضعفها . وما الابداع فى التعبير إلا تقليد قضت به طريقة التفكير فى نفس العبقرى شاعراً كان أو ناثراً أو خطيباً : فى العلوم والفنون والمعارف الانسانية . الواقع من أمرها أن تعلم أى بتقليد وتفهم ثم تمثل المعلومات فى نفس المتعلم فتختلط بملكاتهما فيأتى بها بعد ذلك كأنها له ومن عنده وفضله إبداعه وما أصلها الا التقليد .

فى الأخلاق ، فاضلها ورذيلها ، الشأن فيها تقليد مثل صالح أو فاسد وقدوة حسنة أو سيئة . ثم تقليده حتى يصير إتيان الفضيلة أو الرذيلة عادة ثم يصير خلقاً ثابتاً . وانى لا أنكر أن للوراثة فى هذا الشأن وفى غيره عملاً كثيراً ولكن الانتقال الوراثى كأنه ضرب من ضروب التقليد الاجبارى فى لبسنا وما كلنا ومشر بنا وحديثنا وعاداتنا ومعارفنا وأخلاقنا

ومعاملاتنا، نجد معنى التقليد أصلاً من الأصول الأولى، ولا نستطيع أن نفهم
 الإبداع أى الإيجاد من العدم، الا مضافاً إلى من تفردت عظمته بالقوة
 والإبداع. ولا شئ تحت الشمس بجديد، حتى المخترعات التى يبين عليها
 أنها باكرة لجنسها الأول كالطيران مثلاً فإنها تقليد صرف لمثل موجود.
 لم يغفل الطيارون ذكر المثل الذى قلده، بل دونه مويليار وغيره من الذين
 كانوا يراقبون عن كشب ميخانيكية الطيران لدى الطيور المختلفة حتى
 وصلوا إلى نظرية قلدوا منها مثلاً بالطيارات التى نعرفها الآن.

إذا كان معنى التقليد متغلاً هكذا فى أعمالنا وأفكارنا ومشاعرنا وميولنا،
 مختلطاً بها أصلاً كبيراً من أصول التطور الإنسانى كل همه الوصول إلى كماله
 الممكن، فكيف يمكن اعتبار هذا الأصل الإنسانى رذيلة ومسبة ينتقص
 بها الناس بعضهم بعضاً فيقولون فلان مقلد فى قوة قولهم خسيس الهمة ذليل
 النفس تابع لا متمبوع وفرع لا أصل وقياس على الناس لا فذ ولا شاذ.

الواقع أن التقليد معنى متفاوت الأقدار. فالاعتدال فيه فضيلة لازمة للرقى
والأفراط فى تناوله ضرر وسخرية، كالأفراط فى غيره من المعانى. وأنهم
ليظالمون معنى التقليد إذا أطلقوه على جزئه الرذيل دون جزئه الفاضل، وهو
التقليد بعد التدبر وظهور المنفعة منه أو وجه الجمال فيه.

نحن فى حالنا الحاضرة وحاجتنا فى الأخذ عن التمدن الأوروبى حتى
 نجتمع بين أسباب القوة اللازمة للمزاحمة فى الحياة، يجب علينا أن لا نقتل فينا
 خاصة التقليد المفيد بجعله سبة. بل على الضد من ذلك، نرانا فى حاجة إلى

تروجه حتى تقلد الأمثلة الصالحة من كل نوع فيكثر فينا عددها . دعونا
 فقلد فعمى أن تبلغ الصورة ما بلغه مثلها الأول . ولا حق لنا في الخوف .
 من أن تقليد غيرنا يقضى على ذاتيتنا ، لأن التقليد الكامل غير موجود ولأن
 كل واردات أوربا متى دخلت مصرنا كسبت صبغتنا وتكيفت بكيفياتنا
 اللغوية والدينية والأخلاقية . ولا يكون بعد ذلك إلا أن تكسب طابعنا
 وتصير ملكاً تاماً لنا ، كما أن المدنية التي نقلها العرب عن الفرس واليونان
 قد أخذت طابعهم وصارت مدنية إسلامية . وما نقله اليونان عن المصريين
 صار أصلاً للمدنية اليونانية مملوكاً لها .

✕ التقليد من أصول التطور والتطور طبيعي لا نستطيع نحن أن نقف في
 طريقه فهو سيحصل بالفعل ، مهما كان استقبالنا إياه استقبال حفاوة
 أو استقبال امتعاض ومغاضبة . خير للذين يقفون في طريق تطورنا الاجتماعي
 أن يريخوا أنفسهم من عناء مصادمة الطبيعة ومن شر الخذلان ، بل يجب
 عليهم أن يساعدوه على أن يأتي بنتيجته السعيدة في أقرب ما يمكن
 من الزمان .

سر تطور الأمم

نعم هذه هي رياضتى ! كذلك كان جواب هذا النابغة الكبير أحمد فتحى زغلول باشا وقد دخلت عليه فى بيته بهيليو بولس فى يوم حر شديد فألفيته يضع شرح القانون المدنى وإلى جانبه هذا الكتاب (سر تطور الأمم -) وقد فرغ من تعريبه فى بضعة أسابيع لازم بيته فيها لمرض أصابه فأشفقت عليه من هذا الشغل الشاق فى ذلك الجو المحرق على ما نعهده عليه من رقة فى الصحة وعمل دأى طول سنة العمل . وقلت له أبهذا ترتاض ياسيدى الباشا ؟ فأجاب (نعم هذه هي رياضتى) . فما كانت رياضة فى الصيف الماضى إلا أن أخرج لنا من ثمرة عمله وفكره وقلمه القدير كتابين اثنين تفسير القانون لم يظهر بعد وتعريب (سر تطور الأمم) وهو الذى بين يدينا حين نكتب هذه السطور . فنعم الرجل ونعم ما ينفق فيه وقته وسجته لينفع قومه . علم فتحى باشا منذ شبابه القضى أن رقى الأمة لا يكون بالصدفة ؛ ولكنه جهاد غايته فتح معاقل العلم والتربية وحصول الأمة منها على مقادير تسمح لها بالمزاجمة فى معترك الحياة العامة فجعل لا يخلى وقته من كتاب يعربه أو كتاب يضعه فى الحقوق إذا فرغ من شغله اليومى ، وما عهدناه فيه وانياً ولا عنه منصرفاً ، سواء أكان ذلك أيام يشغل برئاسة النيابة أم يرأس

مجلس القضاء أو كما هو الآن يدير الأعمال ويضع المشروعات في نظارة
الحقانية . كذلك يملأ الرجل حياته وكذلك يعرف كيف ينفع قومه .

يظهر أن فتحي باشا شغوف في المسائل الاجتماعية بأفكار الدكتور
(جوستاف لوبون) على الأخص . وله الحق لأن أفكار هذا الكاتب الاجتماعي
الكبير هي زبدة المعلومات الاجتماعية القديمة ونتيجة المشاهدات الحديثة ،
لذلك كان أقرب الطرق لنقل القوانين الاجتماعية إلى مصر هو تعريب
مؤلفاته ومؤلفات غيره من المعاصرين حتى نستطيع أن نعيش في جيلنا
عوضاً أن نسبح في المعلومات القديمة غير عاملين بنتائج تطورها من حال إلى
حال . ألا ترى أننا أخذنا قواعد القانون الفرنسي الحاضر وجعلناها
قانوناً لنا من غير أن نبتدىء بمصدرها الأول وهو القانون الروماني . ولو أننا
ندرس الآن الطبيعيات والرياضيات على قواعد اليونان القدماء لما كانت
دراستنا لها تساوى شيئاً من التعب الذي نصرفه فيها . نحن نأخذ المدنية
الحاضرة لنسأله بقوتها في المراحة على البقاء فلنأخذها على آخر طراز لها
كما يأخذ فتحي باشا بالقوانين الاجتماعية على آخر تطور لها من قلم الدكتور
جوستاف لوبون .

لسنا في مقام تقدير التعريب في هذا الكتاب فإن فتحي باشا معروف
القدرة في الكتابة ومشهور الأمانة في النقل وكتبه في أسواق العلم كاتبة
المقام الأول عن استحقاق :

وأما موضوع الكتاب فهو البحث في مذهب المساواة بين الأفراد . وفي
طبائع الشعوب النفسية أو البسيكولوجية وفي ظهور أخلاق الأمم في عناصر

مدنيتها وفي تاريخ الأمم باعتبار أنه مشتق من أخلاقها والبحث في أثر المبادئ في حياة الأمم وتأثير المعتقدات الدينية في تطور المدنية وشأن عظماء الرجال في تاريخ الأمم ثم البحث في تحليل الخلق وسقوط الأمم . تلك هي موضوعات الكتاب ونحن من جهة أننا أمة ناهضة فيفيدنا كثيراً أن نعرف نتائج بحث علماء الاجتماع في قواعد صعود الأمم وهبوطها وعلل قوتها وضعفها ، فلا غنى لنا في حالنا هذه عن الاهتداء بهذه البحوث الاجتماعية في عملنا لمصلحة بلادنا خصوصاً إذا رأينا أن هذه القوانين لا يختلف تطبيقها في بلادنا ولا تختلف نتائجها عن أطماعنا .

وأنه ليسرنا أن نرى الكتب التي عربها فتحى باشا وعلى الأخص (روح الاجتماع) و (سر تقدم الانكليز السكسونيين) قد تمثلت تمثلاً حقيقياً في العقول المصرية تشف عنه عبارات الكتاتين في الصحف الذين ليس لهم مرانة بقراءة الكتب الاجتماعية باللغات الأجنبية .

نؤكد ذلك لا إظهاراً لاعترافنا بجميل العرب فقط ولا تذريراً لمطالبته بأن يزيدنا من مؤلفاته ومعرباته فانا نحسبه في غنى عن ذلك . ولكن لبنين بالحس مقدار المنفعة التي نجنيها في تصحيح أفكارنا الاجتماعية من نقل مثل هذه الكتب إلى لغتنا . ولنتخذ هذه المشاهدة دليلاً جديداً على أن أساس وقينا ليس شيئاً آخر إلا نقل قواعد المدنية إلى بلادنا .

فإلى كاتبنا الكبير فتحى زغلول باشا نقدم التهنئة على أن غرسه قد أثمر . ذلك هو خير جزاء يجزاء من يصل الليل بالنهار في نفع قومه من أقوم طريق وهو طريق القلم .

الحرية الشخصية

نسير يحدونا الرجاء إلى تحقيق سلطة الأمة. فيسلم شرفها وننعم نحن بما نعتقده سعادة الاستقلال. غرض كثير العقبات ليس منا على مقربة، ولكنه هو الذى يصح أن يسمى غرضاً حقيقاً بالأمة المصرية السكرية. وهو وحده الذى ينبغى أن يكون مرمى نظر الجمعية والأفراد. ووسيلتنا إليه الاستمرار على العمل والصبر على نتائج ومحاولة جعل خطة الحكومة المصرية بأطرافها غير معاكسة لرقى الأمة فى فروع الرقى المختلفة من حيث النظمات والفضائل الاجتماعية وإنماء الكفاءات الاقتصادية والسياسية. لهذا الغرض نحاول تنبيه الأذهان إلى أعلى خطط الحكم أقرب الاتفاق مع ما تطلب هذه الأمة فى معالجة أمراضها الاجتماعية والوصول بالزمان إلى غرضها الكبير، أخطئة الجماعيين، أم خطة (الحريين). [فقد دلتنا المشاهدات العامة على أن الحكم الماضى قد جعلنا عيالاً على الحكومة رعية لها معتمدين عليها فى كل إصلاح حتى فى التربية، حتى فى حماية الفضائل الشخصية.] نطلب منها كل شئ نطلب منها حتى التوسط فى أن تصلح بين فردين متخاصمين أو عائلتين مختلفتين، ونظن هذه المداخلة من

حقها وإصلاح ذات البين من واجباتها كأنما الحكومة هي لنا كل شيء ، ونحن لأنفسنا لا نملك نفعاً ولا ضرراً [ولا شك في أن السير على هذه القاعدة الاشتراكية يوصل حتماً إلى نتيجة سوداء ، هي قتل فكرة اهتمام الناس بأمورهم العامة إلا ما يكون من الانتقاء اللفظي لما يتم عمله من جانب الحكومة . وتحديد حركات الفرد في دائرة ضيقة جداً هي دائرة أسوار داره . ولا غرابة إن تمتث هذه القاعدة وتسربت إلى داخل الدور أيضاً ، فتناط الحكومة بترتيب دار الفرد على ما تشاء لا على ما يشاء هو .] تتطلب من الحكومة أن تحمي أطفالنا من جهل أمهاتهم وتسهر عليهم فطعمهم بمادة الجدرى وتراقبهم في الشوارع أن تدوسهم العربات . ثم تقوم هي بترتيبهم وتعليمهم فإذا رأينا فساداً في الأخلاق ألقينا عليها مسؤولية ذلك ، ثم إذا وجدنا الحركة العلمية في البلاد بطيئة ، رميناها بسوء القصد أو سوء التدبير ثم نطلب إليها بعد ذلك أن توجد عملاً للشبان الذين لا يريدون اتخاذ الزراعة مهنة لهم . ثم نطلب إليها أن تنقي من غيطاننا دودة القطن وأن تجبرنا بالإكراه على زرع ثلث الأرض قطناً . نطلب منها أن تزرع هي لترينا كيف نزرع ونطلب منها ردم البرك التي حفرناها بأيدينا تحت دورنا في القرى . نطلب منها كل شيء ولا نطلب من أنفسنا شيئاً [ولا شك في أن كل مسؤولية تستدعى لصاحبها سلطة تكافئها . فإذا نحن تنازلنا عن واجباتنا لأنفسنا وألقيناها على عاتق الحكومة فإنما نحن بهذا العمل نفسه نتنازل عن جميع حقوقنا وحرابتنا لنضعها بين يدي الحكومة ،

ولا يبقى لنا منها إلا ما يبقى للعبد أمام سيده أو للخادم المطيع أمام مخدومه القوى . نعمل ذلك ثم نطلب الحرية الشخصية للفرد . فما هي تلك الحرية . إلا أن يحى الفرد ويعمل كما يشاء بشرط أن لا يضر بالغير . ولست أدري إلى أى بعد تقف حدود هذه المشيئة إذا كان للحكومة أن تجعل ميدان هذه المشيئة أضيق ما يكون !

قد تكون هذه الخطة مفهومة قليلة الضرر عند أمة حكومتها ديمقراطية (أى حكومة الشعب أو حكومة الأكثرية) ولكنها طريقة ما أكثر أضرارها فى أمة كأمتنا ليست فيها مشيئة الشعب هى مرجع الأمور . هذا المذهب الذى هو مذهب « الجماعين » إذا استمر تنفيذه فى بلادنا على أنه خطة لحكومتنا يعوقنا كثيراً فيما نحاول من تكوين أفراد أحرار مسئولين ينهضون بالبلاد إلى طلبتها من الإرتقاء . لأن كل فرد سيعيش ويموت تحت وصاية القوى . وبعيد أن يستوى فى الرجل ملكاته وهو تحت الوصاية أو فى حظيرة الحجر . لا أظن أن فى هذا التعبير خفاء لأن كل قانون يكسب الحكومة حقاً ورقابة ، فإنما هو يخسر الفرد من الحقوق ومن الحرية بمقدار ما أخذت الحكومة لنفسها . وكل مداخلتها للحكومة فيما ليس لها أو فيما لا توجبها ضرورة النظام تعتبر ضغطاً على حرية الفرد وتضييقاً فى دائرة عمله . ونحن فى بلادنا أحوج ما نكون إلى مداواة الأمراض التى لحقت بالأفراد من جراء الضغط عليهم . فإذا كان هذا المذهب مفيداً عند بعض الكتاب الاشتراكيين لبعض الأمم ، فإنه غير مفيد لنا . لأن من البلاد ما تتمتع فيها

الفرد بحرية العمل في حدود واسعة ، فقويت ملكاته ونبع إلى حد أدخل الموازنة بينه وبين من دونه في الصفات حتى خيف على حياة الجماهير وسعادتهم من تسلط الأفراد القادرين ، فأراد الاشتراكيون أن يسووا بين الناس فيما يمكن التسوية فيه وهو الثروة ، وقسمة الثروة بينهم على مذهب (القسَمِيِّين) أو أن يعيشوا متساوين على الشيوع كما هو مذهب (الروكيين) . . . الخ . ولا طريقة لتنفيذ هذه المذاهب إلا أن تكون الحكومة (حكومة الشعب) هي كل شيء وإرادة الفرد وحرية لا شيء . . . أما نحن فإننا لا أزال أكرر أننا أحوج ما نكون إلى تربية الفرد وإزالة العقبات من طريقته حتى تنقه نفسه من الضعف الذي أورثه إياه الحكم الماضى وليستكمل قسطه من القوة حتى يستطيع المزاوجة مع أفراد الأمم الأخرى . وعلى ذرائعنا في الأجيال المقبلة أن ينظروا بعد ذلك فيما إذا كانت المبادئ الاشتراكية هي اللازمة لجمعيتهم وقتئذ . فإن خطة الحكم يجب أن تتغير بتغير الزمان والمكان وطبائع السكان .

أما مذهب (الحريين) أو (الفرديين) فإنه يعتبر الحكومة ضرورة من الضرورات . يعتبرها كذلك أي كان شكلها أرسطوقراطية (حكومة الأشراف) أو ديموقراطية (حكومة الشعب) أو حكومة فرد . ولهذا الاعتبار ينبغي أن يكون عمل الحكومة داخل دائرة محدودة بحدود الضرورة . فلا يكون على الحكومة إلا واجبات ثلاث : البوليس وإقامة العدل وحماية البلاد . وكل ما يخرج عن هذه الدائرة لا يحل لها المداخلة فيه .

ويعجبنا قول أحد كتاب الانجليز في هذا الصدد إن الحكومة لم تدخل
 في عمل خارج عن هذه الدائرة إلا أثبتت عدم كفاءتها له . مذهب معقول .
 لأن الإنسان خلق حرا حرية غير محدودة ، فلا يكون حدُّها بضرر الغير
 إلا ضرورة من ضرورات الجمعية . وعلى ذلك فليس من الصواب التوسع في
 في تطبيق هذه الضرورة إلى حد أن يكون القسر هو الأصل الواسع
 وحرية الفرد هي الاستثناء الضيق . وإلا فمافائدة المرء من أن يعيش في
 الجمعية إذا كان يخسر بالجمعية أعز ما وهب الله في هذه الدنيا وهي الحرية .
 وماذا يكون المقابل الذي تعطيه الجمعية إذا هي سلبت منه كل حريته اعتماداً
 على أن هذا السلب إنما هو لمصلحة الجمعية . أظن أن هذا المقابل ليس
 شيئاً كثيراً لأن الأمثلة اليومية تدلنا على أن الجمعية لم تحم من القتل أولئك
 الأفراد الكثيرين الذين يقتلون ظلماً وعدواناً في بيوتهم وفي غيظاتهم
 وفي الطرقات العمومية . سيقولون كلا إن الحكومة تجدد في طلب القاتل
 وتعاقبه . فنقول هب أنها فعلت ذلك فماذا استفاد القتل من ذلك العقاب !
 ومن الأمثلة أن الحكومة أو الجمعية لم تحم مال جميع الأفراد الذين سلبت
 من حريتهم ما سلبت . فسيقولون إن بوليسها يخف في طلب السارق .
 هب أنها فعلت ذلك فما فائدة المسروق منه من وضع السارق في الحبس
 مدة يعود بعدها إلى ارتكاب الجنايات . على أن إحصاء المحاكم يدل في
 بلادنا على أن أكثر حوادث القتل لم يعاقب فيه القتل . أما في السرقات
 فما أظن أن البوليس رد إلى الجني عليه ما سرق منه ولو في واحدة من المائة .

٧
 المحقق
 السيد
 حريش
 المحقق

المحقق
 السيد

فاذا كانت الحكومة أيا كان شكلها أعجز من أن تحمى حياة الفرد دائماً
 وماله في بعض الأحيان، أفلا يكون من الغبن الفاحش أن تأخذ الحكومة
 بقوانينها من حرية الأفراد أكثر من القدر الذى توجبه الضرورة. ضرورة
 البوليس، أو ضرورة إقامة العدل، أو ضرورة الدفاع عن البلاد!!
 [الفرد والجمعية من حيث القوانين طرفان متضاداً المنفعة. يجب التوفيق
 بينهما ولا توفيق الا التصالح أو التنازل من الجانبين، ولا شئ يبرر ذلك إلا
 ضرورة الجمعية أى ضرورة النظام. فلا يجوز للحكومة ما دامت هى ضرورة،
 أن تعمل عملاً أو تشرع قانوناً فيه معنى التسلط على الفرد إلا فى حدود
 الضرورة القصوى]. خذ مثلاً على ذلك بعث قانون المطبوعات. هب أن
 بعض الصحف تطرفت فى النصح إلى الدرجة المضرة بالجمعية، فما ذنب بقية
 أفراد الأمة يرمون بقانون يحد أعلا مظهر من مظاهر الحرية الشخصية وهى
 حرية القلم وحرية الرأى؟ أظن أنه لم يكن ثمة ظل ضرورة يلجئ الحكومة
 إلى هذا القانون. لذلك يرجوا الذين يظنون بها الخير أن تلغيه اليوم وغداً.
 ومثلاً آخر قانون الاتفاقات الجنائية. هب أن ثلاثة أو أكثر اتفقوا على ارتكاب
 جناية سياسية تهدد الحكومة فى وجودها. عاقبهم بما شئتم. ولكن ما ذنب
 جميع أفراد الأمة يرمون بقانون الاتفاقات الجنائية من غير مسوغ. إن ضرورة
 النظام لا يكفى فيها مجرد توهم الحكومة أن رجالها فى خطر، فتبالغ فى تشديد
 الخناق على حرية الأفراد حتى تحظر عليهم اليوم ما كان مباحاً لهم
 بالأمس. وتعاقبهم على ما لم يكونوا يعاقبون عليه من غير ضرورة ظاهرة.

يبين مما نقول أننا نفضل مذهب (الحريين) أو (الفرديين) على مذهب (الجماعيين) الذين يضحون الفرد ومصالحته للمجموع من غير قيد ولا شرط ويعتبرون الفرد ليس له وجود ولا راحة وسعادة ، الا بوصف كونه جزءاً من المجموع . يقولون ذلك وينكرون المحسوس . والواقع أن لكلا المذهبين منافع ومضار ولكن مذهب الفرديين أنفع في بلادنا في الظروف الحاضرة من كل ما عداه . ولكننا مع ذلك لا نرى تطبيق هذا المذهب على إطلاقه . فإنه لا يزال في حال الأمة ما يدعو إلى أن تهتم الحكومة بالمداخلة في بعض الأمور غير الداخلية في واجباتها الثلاث المتقدمة مداخلة حث وإرشاد لا مداخلة حكم وإكراه . فان المداخلة من هذا النوع قد تبررها أيضاً ضرورة علاج الأمة من الخمول الماضي العميق .

نقدم هذه المقدمات الطويلات لا لمجرد الانتصار لنظرية علمية على أخرى ، بل لأننا نشعر في البلاد بتيار قوى من جانب الحكومة ومن جانب بعض الأفراد مآله قرب السير على مذهب (الجماعيين) فإنهم يطلبون من الحكومة التقنين والمداخلة الفعلية في أمور لا تبررها الضرورة ، والحكومة تطاوع في ذلك فتتدخل فيما تقل كلفته عليها وتكثر به سلطتها اجابة لطلب الأمة . ولكنهما مع ذلك لا يجيب طلب الأمة فيما طلبت من الدستور . ومن المضحك في هذا المقام أن نذكر السبب الذي أبدته الحكومة لتبرر به بعث قانون المطبوعات . السبب أن الجمعية العمومية كانت طلبته في قديم الزمان . كأنها تقول يعز على الحكومة أن لا تخف لإجابة رغبة الجمعية العمومية

المثلة للأمة في تضيق الخناق على دائرة الحرية الشخصية التي هي
 أساس كل صلاح للامم؟! للامة أن تطلب الاشراف على أعمال الحكومة
 وتجذب في هذا الطلب ولكننا نحن الأفراد نطلب من الحكومة — والحكومة
 في بلادنا سمو الخديو والوزارة والجمعية التشريعية — أن لا تفرط في
 التعدي على حريتنا بالإكثار من القوانين إلا في حدود الضرورة وأن
 تعاوننا نحن الأفراد على أن نستكمل حفظنا من القوة العملية بالكف عن
 المداخلة في الشؤون التي من شأنها أن تترك لعمل الأفراد مهما كان أثر
 المداخلة مفيداً لمصالحهم لأنه لا مصلحة للفرد تعدل مصلحته من القوة
 والاستعداد للمزاومة للحياة . مثال ذلك مداخلة الحكومة في مراقبة حال
 الطلبة المصريين في أوروبا . فإننا إذا رضينا بقيام الحكومة في مصر بأمر
 التربية والتعليم وهما من عمل الأفراد ؛ وإذا رضينا بذلك اعتماداً على أن الأمة
 لا تزال محتاجة إلى مثل هذه المساعدة ، فلا يمكننا أن نفهم ما الذي يسوغ
 لنظارة المعارف المداخلة في التوسط بين الرجل وبين ابنه الذي يتعلم في أوروبا
 على نفقته مداخلة لم يرضها الطرفان ، أو التوسط بين التلاميذ المصريين
 ومدارسهم ولم يطلب منها أحد الطرفين هذه المعونة . إذا رضينا أن
 الحكومة تكون تاجرة تمسك بين يديها السكة الحديد ، وإذا رضينا بذلك
 اعتماداً على أنه ليس في البلاد شركة مصرية صرفة يمكنها أن تقوم بهذا
 العمل العظيم تشتري السكة وتديرها ، فإننا لا نعجبنا مثلاً ما يشاع من أن
 الحكومة ستزرع على ذمتها أرضاً من خارج الزمام وأنها تبقى في يدها أطيان

الدومين تستغلها وتزاحم الأفراد المزارعين في الاستغلال . . . الخ
 لذلك نكرر أن التيار الذي يتمشى الآن في الحكومة وفي الأمة نخشى .
 أن يفضى إلى جعل خطة الحكومة هي خطة التسلط على الأفراد والتضييق
 عليهم للمصلحة الموهومة للجمعية . وما مصلحة الجمعية إلا في أن الحكومة
 وهي موجود ضرورة لا يحل لها أن تخرج في قوانينها ولا في تصرفاتها عما
 تلزمها به الضرورات احتراماً لحرية الأفراد ومصالحهم .

خبز السجون

هذا الخبز الضار لا ندرى أنسكال فوق العقاب أريد بأهل السجون أم
محض اقتصاد في النفقات ! شكاً منه أهل السجن وجيء لنا منه بعينة ذات
لون قاتم ومماس خشن تقطع شهوة النهم وتعافها الكلاب ، فشكونا منه إلى
أولى الأمر فيه ، ووعدنا من بضع سنين بتحسين حاله فحقت صوت الشكوى
ثم زال . وكان الناس في اطمئنان على صحة ذلك العدد الكبير من المسجونين ،
فاذا بنا اليوم نسمع صوت الدكتور نيدل ترجعه رصيفتنا (البروجرية)
إن خبز السجون سم قاتل : قالها الدكتور لا أخذا بظاهره المؤذى ولكن
بعد بحث وتحليل . قولة تخلع قلوب الناس على أبنائهم وتفرع منها أهل
العدل وأولو الرحمة بعباد الله فلا مناص للحكومة من تغييره في الحال أو
تحليله ونشر نتيجة التحليل .

ما سمعنا إلى اليوم في حكم هذا القانون الذى بأيدينا أن الغذاء جزء
العقاب يأكله الأثيم سما قاتلاً كما يقول الدكتور . بل العقاب بين في الحدود
وفي حكم القاضى حبس بسيط ومع التشغيل . حبس بالأشغال الشاقة مؤقتاً
أو مؤبداً . ومن عقوبات السجن الجلد وليس منها الطعام الضار . على ان
عقوبة السجن لمن يتعدى حدوده لا لجميع المسجونين على السواء لذلك

يستحيل الظن بأن هذا الخبز الذى يطعمه أهل السجن هو العذاب جزاء على سيئة المسئى . إلا أن تكون مصلحة السجون تريد على حكم القاضى . وليس لها إلا تنفيذه هو لا غيره بذاته ووصفه . وما يطعم السجين إلا من غالب قوت أهل البلد . كان يطعم السجناء خبز القمح ، فقالوا بل خبز الذرة هو غالب قوت أهل البلاد وما كان لنا أن نجعل الاجرام ميزة للمجرم على البرى وفضلا للسجين يأكل خبز القمح على الطليق يكاد لا يطعم إلا خبز الذرة . قالت مصلحة السجون ذلك عند شكوانا الأولى . فقلنا تلك كلمة حق وانصاف لا نخال أحداً من غير أهل السجن إلا يقرها على ذلك . ولكن خبز الذرة ليس سما قاتلاً ولا هو بلونه وملامسه وطعمه ردىء يعافه الجائع . فماذا عساه يكون هذا الخبز الجديد ؟ !

حسب الإنسانية عذاباً عامها بأن العدل الذى يؤخذ به الناس ليس فى الحقيقة إلا الطريقة الممكنة للنظام وانه أشبه بالظلم منه بالعدل المطلق . وأنها تعرف أن من السجناء مظلوماً حقيقاً بالتمتع بحريته ، ومن الطلقاء أثماً أولى به ظلمات السجون .

حسب الإنسانية عذاباً عامها بأن من الجناة عدداً كبيراً لا يجوز أن يحمل كل مسئولية جنائية ، وأن للانتقال الوراثى والبيئة ودوافع الطبيعة التى لا قبل لأحد بردها ، لكل أولئك معظم المسئولية على الجناية . ومع ذلك هى تعاقب الجانى كأنما هو حر فى تصرفاته يحمل وحده عدلاً جميع نتائجها . حسب الإنسانية ما هى فيه من القلق الدائم والشقاء المستمر ، فما كان

أغناها عن هذا القلق الجديد الذى سببته مصلحة السجون رجاء اقتصاد
تافه فى النفقات أو تهاونا فى معاملة المسجونين بالتي هى أدنى للرحمة والرفق
ببنى الإنسان .

ليس بالحكومة من حاجة لأن تؤكد لها أن هذه التهمة هى أشنع ما رميت
به حكومة فى الدنيا ، ونطلب إلى نظارة الداخلية أن تحقق تصرف مصلحة
السجون وتنشر على الناس العناصر الداخلة فى تركيب هذا الخبز ليطمئنوا
على أن الرفق والقانون كليهما آخذ نصيبه فى السجون .

من أجل ذلك نطلب الدستور

[طلبنا الدستور ونطلبه لتكون الوزارة مسئولة عن تصرفاتها مسئولية ، ذات أثر فعلى أمام المجلس لتكون الأمة فى أمن على حقوقها وحريرتها] ، فلا ينفى أحد إلى السودان من الليمان أو من غير الليمان إلا بحكم قضائى بالأوضاع القانونية .

وطالما قيل عنا إنا نقول بسلطة الأمة لمجرد تقليد الأمم المتمدنة . نقول بذلك ونطلب الدستور لتتخذ زخرفا ولنرضى شهواتنا من العزة المجردة عن كل منفعة حقيقية يقولون ذلك ويقولون إن المصريين فى أمن الله ، لهم حكومة عادلة وإن كانت غير دستورية بالقانون . إلا أنها لفرط عدلها وتناهيها فى العفة وبعدها عن الاستبداد كالحكومة الدستورية أو أقوم سبيلا . فيها منافع الحكومة الدستورية وليس فيها أضرار البطء فى سير الأعمال ولا المشاغبات الحزبية التى تؤدى فى كثير من الظروف إلى ضرر البلاد . حكومة هى المثل الأعلى للحكومات لأن فيها شدة الحكومة المستبدة وعدل الحكومة النيابية ، فإذا ينقص المصريين إلا الفخفخة والمباراة بأنهم أمة ذات حكومة دستورية . وإلا فإن الأمة المصرية متمتعة فعلا بنتائج الدستور لها غم الحكم العادل وليس عليها منه شيئا من المسئولية .

لو كان ذلك صحيحاً لرضينا بحالنا كارهين . فماذا يكون شأننا والأمثلة اليومية في أعمال الحكومة لا تزيدنا إلا اقتناعاً بالحاجة إلى الدستور . نتخذ ، لا زينة في الحياة ، ولكن مراقبة للتقدم وأماناً من الاستبداد . هانحن أولاء أمام تصرف من أحدث تصرفات الحكومة عهداً وأشدها أثراً في الطمأنينة على الحرية الشخصية وادعاها إلى التظنن في تطبيق القوانين . ذلك المثل هو نفى المسجونين إلى السودان من غير حكم النفي وفي غير حدود القانون .

لو أن السلطة الشرعية والسلطة الفعلية متفقتان على أن السودان جزء غير منفصل عن مصر وأنه لا فرق بين مديرية الخرطوم وبين مديرية أسوان ، وان عقد الاتفاق المبرم بين الحكومة المصرية وبين الحكومة الانجليزية باطل ، وأن السودان ليس وطناً خاصاً ومستعمرة بل هو إقليم من الأقاليم المصرية وجزء من الوطن المصرى تحت سلطة القانون المصرى . لو كان الأمر كذلك لما كان إبعاد المسجونين فيه نفيّاً لا تبيحه قوانين البلاد . ولكننا نحن أول المبررين لعمل الحكومة من هذا القبيل . فأما والاتفاق السودانى منفذ بين الحكومتين ، والسودان غير خاضع للقوانين المصرية ، فإنه لا يجوز اعتبار السودان جزءاً من مصر فيما يضرنا ، واعتباره منفصلاً عن مصر فيما ينفعنا .

يضحكنا أن يرد على بعض الأذهان أن تصرف الحكومة هذا قد يعتبر سابقة تنفعنا هي ومثيلاتها يوم إقامة الدليل على أن السودان جزء من

مصر !! كلا إنه لا مصلحة للضعيف من مجاوزة الحق إلى ميدان القوة .
 فإن الحق هو قوة الضعيف ، فإذا جاوزه إلى غيره ، فإنما هو مجرد نفسه من
 كل سلاحه ، ليحارب القوة بالضعف المجرد .

ومهما كانت العيوب الأصلية في اتفاق السودان ، فإن الواقع أن العمل
 جار عليه . فإذا كانت الحكومة المصرية توافقنا على أن فيه من العيوب
 القانونية ما يبطله وتعديل عن تنفيذه ، يصبح قولها مقبولا في أن إبعاد
 المسجونين إلى السودان ليس فيه مجاوزة لحدود القانون ولا اعتداء على
 الحرية وحقوق الإنسان . ونحن نعيذ الحكومة من أن تعتمد في تبرير عملها
 هذا إلى التحدى بهذه النظرية لأنه لا يفسر في اليثبات المصرية إلا بأنه
 استخفاف بالرأى العام . وحكومتنا أعلى مقاما وأكثر بصيرة من أن
 تعرض نفسها إلى مثل هذه النتيجة .

وكل ما يقال في الموضوع إن الحكومة تعجلت في الأمر . وفي قدرتها
 أن ترجع أولئك المنفيين من السودان احتراما للقانون . أما نحن من جهتنا
 فنقول لو أن لنا دستورا لما أمكن أن يقع من ذلك شيء .
 ومن أجل ذلك نطلب الدستور .

حقوق الأمة

قد تجاوزت الحكومة عندنا حدود القانون، لا حباً في إذلال الشعب ولا إظهاراً لعظمتها واستهانتها به. ولكن لما يظهر لها من وجود المنفعة العامة كأنها ترى أن المنفعة هي كل شيء وغير المنفعة لا شيء. صحيح أن منفعة الأمة بوجوهها المادية والمعنوية هي كل شيء؛ ولكن من هو الحكم مُرضي الحكومة في تقدير منفعة الأمة؟ تلك هي المسألة وذلك هو الفرق بيننا وبين الذين يظنون أن حكومة المستبد العادل هي خير الحكومات.

نقول إن نظرية الاستبداد بالأمر على مبادئ العدل نظرية خيالية، لأنه لا يعرف التاريخ حكومة من هذا الصنف. بل كانت الحكومات المرضية لحكومة الخلفاء في صدر الإسلام، بعيد عليها أن تكون مستبدة لأنها كانت خاضعة في كل تصرفاتها الاجتماعية والسياسية لكتاب الله وسنة نبيه. ولا نعرف عن الخلفاء الراشدين أنهم تعدوا في تصرفهم حدود الله ولا غمطوا حقوق الأمة ولا حقوق الأفراد المقررة في الشريعة الغراء بحجة أنهم إنما يتعدون حدود الله لمصلحة الرعية، لأنه لا مصلحة للرعية من تعدى الحاكم حدود الشرع. وغير هذه من الحكومات المستبدة ما كانت عادلة. فما أظن مذهب (الاستبداد العادل) في عقول أنصاره إلا أمنية

يتمنونها لمثل أعلى من حكومة موحدة الكلمة قوية البطش بعيدة عن الشهوات الحزبية والفردية سريعة الحركة لا بطيئة كالحكومات النيابية . عادلة لا تنحرف عن جادة العقل أبداً . تصوروا هذا المثل الأعلى فلم يجدوا له صيغة إلا ما سموه (حكومة المستبد العادل) . وها نحن أولاء قد جربنا الاستبداد ورأينا تجارب الأمم في الاستبداد وفي الحكومة النيابية ، فخرجنا من هذه الأمثلة نمقت الاستبداد ونحب الحرية ونود بكل شيء لو نخرج من حكومة الاستبداد إلى الحكومة النيابية أو حكومة الأمة . هذا هو الواقع من أمرنا ومن أمر كل الأمم . وبعيد أن نرجح ذلك المذهب التصوري الصرف على هذا المذهب ، مذهب الحكومات النيابية التي أثبتت التجربة أنه أفضل طرائق الحكم .

على أن منافع الأمة ليست كلها منافع مادية . إنما الأمة أفراد ليست حياتهم في الحقيقة إلا مشاعر . فهم في الحكومة الاستبدادية في شعور بالذل والعبودية يقبض الصدر ويحبس الملكات ويكره المرء في عيشته . يكرهه في عيشة ليست له ، فإنه إنما يعيش على خطر أن يصلب أو ينفي أو يجرد من ماله لما تراه الحكومة من منفعة الأمة في الصلب أو النفي أو التجريد من المال . حياة جربت ، فكانت نتيجتها اللازمة جهود القرائح وفساد القلوب . فلو أننا قارنا حال الأمم المتمدنة تحت حكومات الاستبداد وتحت الحكومات النيابية ، لوجدنا أنها تحت الأولى كانت في نوع من الجمود أكبر مظاهر الرقي فيها التقدم الصناعي لإرضاء شهوات الملوك

لا دولة
الاستبداد

مستور
التي
النيابية

والحكام من الزينة والزخارف في العمارات . أما تحت الحكومات النيابية . فكان العقل البشري قد فك من عقلمه فتشط يأتى بالمعجزات الواحدة تلو الأخرى . والواقع أننا لا نعرف سبباً جدياً لهذا الروح الجديدة التي تجلت على مدينتنا الحديثة فجعلت الإنسان ملكاً حقيقياً يسخر كل قوى الطبيعة لمنفعته حتى حقق خيال الكتاب السابقين . فإن كتاب العصور الأولى كانوا يظنون طيران المرء في الهواء حلاماً جميلاً وخيالاً عن الحقيقة بعيداً . ولكنه اليوم وما سبقه من المعجزات الحديثة حقائق راهنة .

وما السبب في ذلك إلا الخلاص من الاستبداد والاستعاضة عنه بحكومات الحرية . فقدنا بالاستبداد ينابيع السرور التي من شأنها أن تنفجر في النفس الإنسانية . وفقدنا به حرية العقل التي أتت للعالم بهذه المعجزات ثم تجيء بعد ذلك في القرن العشرين ونسمح لنفوسنا أن يرد على خاطرها الرجوع إلى الاستبداد على أى وجه كان ؟ !

نسوق هذا القول لبيان أن الحكومة الاستبدادية لا تستطيع بحال من الأحوال أن تشعر بمشاعر الأمة لتقدر منافعها . ولذلك فإنها مهما كانت بعيدة عن الهوى لا يكون أمرها في التصرف إلا أنها تخلص من خطأ لتقع في خطأ مثله .

بعيد علينا أن نتهم حكومتنا بشهوة الاستبداد وتجاوز حدود القوانين لإظهار عدم احترامها للرأى العام . ولكنها تفعل ذلك اعتقاداً منها — كجميع الحكومات الاستبدادية — بأنها انفردت بمعرفة منافعنا دوننا . وعلى هذا

لا يستبداد
على أى وجه
كان

النحو جرت في إرسال الليمانية إلى السودان وفي منع الموكب الذي كان يريد الطواف في المدينة لمناسبة عيد الجلوس ، ويلقى خطابؤه الخطب في الأحوال العامة . ولعل المنع كان مقروناً بالجمالة في المعاملة أو بإحلال الإرشاد والنصيحة محل الأمر والإكراه . ولكنه على كل حال منع من التمتع بحقوق الأفراد . حق الاجتماع والسير في الشوارع العامة وحرية الخطابة في جنيئة الأزبكية . وذلك كله مجاوز لحدود القوانين .

ليس إرسال الليمانية ولا منع المظاهرة هو وحده الذي يخيفنا على حقوق الأمة . فإن هذه المجاوزة تكررت في هذا الصيف الماضي . فشرعت الحكومة القانون النظامي من غير أن تأخذ رأي مجلس الشورى بمجاوزة حق الأمة الثابت بالقانون القديم . ثم أخذت تصدر القوانين بعد صيرورة القانون النظامي واجب التنفيذ ، فأنشأت نظارة الزراعة وأنشأت نظارة الأوقاف . كل ذلك من غير انتظار رأي الجمعية التشريعية . وذلك مجاوز أيضاً للقانون النظامي فلا تكون المسألة إلا مجاوزة تتبعها مجاوزة . قولوا ما شئتم من أن تلك المجاوزة في مصلحة الأمة ونحن مع أننا لا نعرف وجه هذه المصلحة ، نوكد أنه لا يوجد للأمة في الدنيا مصلحة تعادل مصلحتها من الحرية والمحافظة على حقوق الفرد وحقوق المجموع .

لذلك نرفع للحكومات النصيحة ونكرر الإلتماس بأن الأمة هي وحدها التي تعرف منافعها دون غيرها . وأنها مع ذلك لا ترى لنفسها منفعة أئزم لحياتها من الاحتفاظ بالحرية وسلامة حقوق الإنسان .

الكفاءة الاقتصادية

ليست حاجتنا من إنماء الكفاءات الموصلة إلى الاستقلال قاصرة على إنماء الكفاءة الأخلاقية والكفاءة السياسية، بل لابد لمطلبنا من الرقي لإنماء الكفاءة الاقتصادية التي في توفرها عزة الأمم وفي فقدها الذل وسوء الحال . منذ فتح للأمة طريق الاقتصاد أي منذ إلغاء الالتزامات لم يثبت الفلاح المصري في أية طبقة من طبقاته الثلاث الفقيرة ومستورة الحال والغنية، أنه يحفل كثيراً بمبادئ الاقتصاد أو أنه يحاسب نفسه حساباً عسيراً عندما تحضره شهوة المباراة في عدد الأفدنة أو في الإنفاق على عرس أو على مأتم أو على اكتتاب من اكتتابات الخير والشر، أو في الإدلاء بالمال إلى الحكام في غرض مشروع أو غير مشروع . انه مبالغ في التفاؤل بالخير . فهو لا يجب أن يقيس حاصلات السنة الآتية على حاصلات السنة الماضية . ولا يجب أن يجعل قاعدة قياسه النظر الصحيح المرتكن إلى الحس . ويفعل عمداً أن يجعل لظرف السوء محلاً من الملاحظة في تقديره . كان يتزوج كلما تيسر له ذلك ولا يحفل بما سيفتح عليه تعدد الزوجات من النفقات، كأنه اتخذ عند الزمان عهداً أن يدور دائماً لمصلحته، أو كأنما هو يصرف من تحت السجادة . فهو بذلك المثل الأعلى لمذهب المتفائلين . متفائل غال في التفاؤل

إلى ما يكون أشبه بالغفلة منه بالإتكال على الله . الواجب عليه أن يتقدر
ويعمل ويتكل على الله، فهو لا يتقدر وإن قدر يخطئ عمدًا في التقدير ويعمل
 إلى درجة محدودة ويجعل الاتكال يقوم مقام التقدير والعمل جميعاً ، لأنه
أقل كلفة عليه وأسهل عذراً عندما يلوم نفسه أو يلومه غيره على ما فرط في
واجب الاقتصاد .

تلك هي إحدى الشخصيات التي قد يمتاز بها الفلاح المصري عن غيره
 من الفلاحين في البلاد الأخرى . يقولون إن من أخص الرذائل في أهل
 الفلاحة الأنانية والبخل والحسد . والظاهر أن الفلاح المصري برئ من
 هذه الرذائل إلى نقائصها أي إلى فضيلة كرم النفس وكرم اليد وعدم النظر
 إلى ما في أيدي الناس من نعم الله . بل الظاهر أيضاً أنه بالغ حتى أسرف
 على نفسه فظلمها بعدم المبالاة وظلم قومه أيضاً فألقى البلاد تحت أعباء ثقيلة
 من الديون، لا فكك لها منها إلا بعمل عظيم وزمن طويل .

ذلك الذي نسميه النقص في الشعور بمسئولية الحياة الجديدة التي دخلنا
 فيها ، هو السبب الأول لهذه الضائقة الحائرة بالفلاحين ، بل هو السبب
 الأول للنتائج السيئة التي يجعلها المتطيطرون البأسون علامات الخراب . ولكن
المعتدلين في النظر لا يرونها موجبة للقنوط بل موجبة لشدة الالتفات إلى
إصلاح النظام الاقتصادي في مصر ونشر المبادئ الاقتصادية والأمثلة
الاقتصادية ، نستطيع أن نستفيد في حياتنا المدنية الجديدة من الثروة المالية
 القدر المناسب لما نستفيد من الثروة الأخلاقية والفنية والعلمية .

ليس من الغالين في سبيل الاقتصاد من يقرن الكفاءة الاقتصادية
 بغيرها من الكفاءات الأخرى في العناية والرعاية ويجعل العمل لها لازما
 لتربية الأمة بل هو أزم من العناية بالكفاءات الأخرى . لأننا يجب أن
 نعيش قبل أن نكون علماء أو فنيين يجب أن نعيش قبل كل شيء . ولقد
 نرى بالمثل أن العلم يخدم الاقتصاد والفن يخدم الاقتصاد والسياسة لا تستعمل
 حيلة ولا تشير حربا إلا لتخدم الاقتصاد .

فعلى أى وجه نظرنا إلى الحركة الاقتصادية في البلاد نجد أن العناية
 بنظامها في عمومها والإرشاد إلى انمائها في كل أجزائها ومظاهرها الجزئية، هي
 من أول الواجبات على كل جمعية تغذى نفسها بآمال الرقي وعزة الاستقلال .
 [على الحكومة أن تضع قواعد النظام الاقتصادي وعلى الأفراد الانتفاع
 بهذا النظام كل لمنفعته . ولقد يظهر على الحكومة أنها استعملت
 طرقا وقامت بمشروعات من شأنها تنظيم الحال الاقتصادية في مصر،
 ولكن الطرق التي استعملتها والمشروعات التي شرعتها من بضعة عشر
 عاما إلى الآن ، لم تأت بفائدة أو على الأقل لم تأت بالفائدة المقصودة
 منها . فإن البنك الأهلي والبنك الزراعي لم يأتيا بالنتائج التي يأتى بها
 أمثالهما في البلاد الأخرى . والسبب في ذلك راجع إلى أن هذين البنكين
 أجنيبان في الحقيقة لا يميز بينهما وبين غيرهما إلا أنها ممتازان عند
 الحكومة . ولم نجد من كليهما أو من أحدهما خدمة أداها للبلاد أكثر من
 الخدمات التي يؤديها أى بنك من البنوك الأخرى . كذلك قانون خمسة

البنك
 الزراعي
 الأهلي
 حفيان

الأفدنة . لم يأت بالفائدة المنتظرة ، بل ربما يستمر على الاتيان بنتيجة عكسية حتى يتم أمر إنشاء النقابات الزراعية التي كان يجب إنشاؤها قبل قانون خمسة الأفدنة بزمان كاف . كذلك إنشاء صندوق التوفير والحلقات ^(١) . لأنها كلها كأنها وضعت لمعالجة الأعراض دون الداء الأصلي . ولا نجد من بين أعمال الحكومات عملاً يفيد حقيقة في الحال الاقتصادية إلا أعمال الري والصرف . ولكن ذلك يستحيل أن يعد تنظيماً لحالنا الاقتصادية .

نقول إن مداخل الحكومة في تنظيم الحال الاقتصادية قد لا تتفق تماماً مع مذهب الحرية . ولكننا نهنا إلى ذلك بأنه من غير الممكن أو على الأقل من الصعب أن ينفذ مذهب من مذاهب الحكم برمته من غير استثناء . على أنه في بلادنا التي هي حديثة العهد بالنهضة الجديدة يجب أن تأخذ الحكومة على عاتقها تشجيع الحال الاقتصادية وإتمام الكفاءة الاقتصادية بحال تتفق في مظاهرها مع روح الحرية وهذا ميسور مجرب في كثير من البلاد .

ولا شك عندنا في أن الحكومة إذا أرادت معالجة الحال الاقتصادية من أصولها ، عمدت إلى تشجيع إنشاء بنك مصر والنقابات الزراعية ، وذلك هو الحجر الأول في النظام الاقتصادي المطلوب .

(١) أسواق يباع فيها القطن

النظام الاقتصادي

الفلاح في ضيق شديد وحاجة مستمرة للاقتراض . والوسطاء والبنوك الصغرى وبقية الشركات ذوات رؤوس الأموال الوهمية تلعب في السوق بثقة البنوك الكبرى و بأموال الناس

والبنوك الكبرى تقبض يدها خشية أن تقع فيما وقعت فيه من الخسائر التي جرتها عليها حوادث الافلاس المتتالية . فأتسع المجال لصغار المرابين في القرى .

ذلك هو نظامنا الاقتصادي إن صح أن تسمى الفوضى الاقتصادية نظاماً . إنها نظام في الجملة عند عدم النظام .

ليست الحكومة وحدها هي المسئولة عن هذه الفوضى ، لأن عقبة الامتيازات الأجنبية مانعة من توحيد النظام الاقتصادي في مصر على طريقة تكفل مراقبة السوق مراقبة فعلية وضرب المثل العنيف بعقاب الذين يأكلون أموال الناس وياعبون بثقة البنوك ، وأسهل ما عليهم آخر الأمر أن يقدموا دفاترهم ويشهروا إفلاسهم . ومن الصعب أن يوضع في مصر نظام اقتصادي يكفل حيطة السوق من الخيانة حيطة تامة ، إلا بعد إلغاء الامتيازات الأجنبية وتوحيد سلطة القضاء التي إليها المرجع في جميع الأحوال

غير أن عقبة الامتيازات ليست هي العلة الوحيدة للفوضى الاقتصادية، بل قد تكون الامتيازات في كثير من الأحيان هي العامل الأول في الوقت الحاضر لثقة المالين الأوربيين الذين تشتغل أموالهم في مصر. تلك الثقة التي كان من شأنها أن تكون سعداً على مصر والمصريين، لو أننا أحسننا التصرف وراعينا قواعد الاقتصاد واستطعنا أن نتقى شر الوسطاء والبنوك الصغيرة. ليست عقبة الامتيازات مانعة من إيجاد نظام اقتصادي إن لم يكن كاملاً، فليكن مخففاً للفوضى الاقتصادية كافلة للفلاح أن يستدين بفائدة معقولة في فصل العسر استدانة مناسبة لحاله من الثروة حتى لا يقع في الإسراف والفقر المستديم.

يتوقف النظام الاقتصادي المحلي على استعداد من جانب الفلاحين وإرادة صحيحة من جانب الحكومة لحمايتهم، بشرط أن تكون هذه الإرادة خالصة من كل الاعتبارات التي خالطتها في الماضي عند تفكير الحكومة في إنشاء بنوك أهلية يكون لها من الامتياز ما للبنوك الأهلية في البلاد المتقدمة، وعليها من الواجبات ما على تلك البنوك.

أما استعداد الفلاحين للانتفاع من النظام الاقتصادي، فذلك رهن بالتربية الاقتصادية. وأفضل أنواعها أثراً في بلادنا هو النقابات الزراعية الحرة التي ليس للحكومة في أمرها إلامايتها وتشجيعها من غير أن تكون تابعة للحكومة تبعية قريبة. لأن النقابة إذا كانت تحت رئاسة المدير أو المأمور يصعب جداً أن تأتي بالغرض المقصود منها. تتعطل فيها همه

الأعضاء ويقتل فيها روح الاستقلال ويتطرق إليها من كل ناحية أغراض
 المحسوبة ويصبح الإشتراك في رأس مال النقابة أشبه بضريبة لا يأتيها
 الشريك إلا كارهاً ولا يدفع من ماله لها إلا من يكون له حاجة يبغي
 قضاءها بسلطة الحاكم الإداري ، وتكون النقابة بذلك بؤرة جديدة لإفساد
 الأخلاق كبقية الاكتتابات التي يقوم بها الحكام الإداريون . وفوق
 ذلك فإن الحاكم الإداري خلو في الغالب عن المعلومات الاقتصادية ، ولكنه
 بوصف أنه حاكم يجب أن يطاع أمره وينفذ رأيه . نقابات من هذا النوع
 أولى بها أن لا تكون . إنما تنفعنا النقابات الحرة التي يقوم بها الناس
 بأنفسهم لا بأمر المدير ، ويديرونها بأنفسهم تبعاً للنظام المرسوم والقانون
 المشروع لأبواب المدير ، وكل ما على الحكومة الإرشاد والتضحية وتسهيل
 السبل لهذه النقابات في معاملة البنك . فإن كانت المراقبة لازمة فلتكن
 على الحسابات بمعرفة العمال الماليين لا الحكام الإداريين . هذا النوع من
 النقابات هو وحده الذي يقوم بأمر التربية الاقتصادية العملية ويجعل
 الفلاحين مستعدين للانتفاع ببقية النظم الاقتصادية في البلاد .

أشرنا إلى إرادة الحكومة إرادة صحيحة خير الفلاحين من الجهة
 الاقتصادية ، ونعني بالإرادة الصحيحة أن يكون عملها كله أو جلّه موجهاً
 لمصلحة الفلاح غير ملحوظ فيه ترويج مصالح أرباب الأموال في البنوك
 التي اعتبرتها وطنية ، وليس فيها من الوطنية إلا الاسم المجرد . فلأن الحكومة
 أرادت أن تجعل للمصريين صوتاً في السوق المالية في بلادهم لاستعاضت

بالاكتتابات التي يقوم بها عاملها كل يوم بطريق التوريط والتجبية وشبه
 الاكراه لمشروعات ما أنزل الله بها من سلطان ، باكتتاب خُرٍّ عام تحت
حمايتها لإنشاء بنك وطني تعطيه من الامتيازات ما أعطت للبنك الأهلي
والبنك الزراعي ، ليكون هو المشجع للنقابات الزراعية والمشروعات الاقتصادية
 الوطنية . ولم يفت الوقت على ذلك . فان الحكومة الحاضرة تستطيع أن
 تصحح خطأ الحكومة الماضية ولعلها فاعلة ، لأنها ستعرض على الجمعية
 التشريعية قانون النقابات الزراعية عند افتتاحها . خطوة حسنة في سبيل
 الإصلاح ، ولكنها لا تتم هذه الخطوة ولا تأتي بالمتصور منها الا إذا قررت
 الحكومة بالمساعدة الفعلية لإنشاء بنك مصري بالمعنى الصحيح . وفي هذا
 المقام نصرح بأن كثيراً من أولى الأموال في مصر مستعدون تمام الاستعداد
 لتنفيذ قرار « المؤتمر المصري » والقيام بإنشاء البنك في حجر الحكومة
 وتحت إشرافها ومساعدتها . وإنا نسارع إلى التصريح بأن البنوك الكبرى
 في مصر تستقبل هذا المشروع بعين الرضى وتسانده . فقد حادثنا بعض
 مديري أكبر البنوك في مصر في هذا المشروع الذي تحمل البلاد بتحقيقه
 من أكثر من ثلاثين عاماً ، فأظهروا لنا استعداداً تاماً لمساعدة المشروع
 مادام حقيقاً بالثقة . والواقع أن مصر لا تزال قطراً بكرّاً من حيث للاستغلال
 تحتل المراحة المالية في سوقها عشرات من البنوك الجديدة ، بل لا يزال
 ينقصها المال اللازم لإحياء الأرض الموت وتجفيف المستنقعات والبحيرات
 وإعدادها للزراعة واستخراج ما في بطن الأرض الجبلية من كنوز الرصاص

والنحاس والبتروول . وكل هذه المشروعات لا تتحقق الا بأموال البنوك .
 فالقول بأن المزاومة المالية لا تمكن بنكاً مصرياً وطنياً برؤس أموال كلها
 أو جلها مصرية من الوجود والبقاء ، قول لغو لا محل له من الاعتبار
 ولا يتوقف هذا المشروع إلا على الشروع فيه تحت حماية الحكومة وبمساعدها .
إنا إذا شرعنا في إنشاء البنك الوطنى والنقابات الزراعية ، أمكننا أن
نخفف وطأة القوضى الحاصلة فى مصر وأن نوجد فى البلاد حركة اقتصادية
ذاتية يمكن تنظيمها بغاية السهولة .

وفاة فتحي زغلول باشا

بلونا من موت الأصدقاء والأحباب ومن فقد العلماء والنبغاء، بلونا من ذلك الضربة على الضربة، وذقنا طعوم الحسرات الحسرة تو الحسرة، وتجرعنا عليه الصبر بالكاس الكبير والصغير، فما أفاد التمرس ولا أجدى الاعتماد. ولا نزال نلقى المصيبة ينخلع لها القلب وتبكي لها العين وتجزع لها النفس بأكثر من أولى المصائب وبأكورة الأحران. فلا ندرى أرقّت عواطفنا لما جربت من لوعات الأسى وحسرات الأسف أم لم يفد النفس اقترانها بالمصائب ولم يغن عنها وقت الشدة ما تجرعت من كؤوس الصبر!! شأننا في الحياة هو هذا. «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص» تنزل بنا النازلة وكلنا يجزع خياله من تصورها. وكلنا قائل إذا وقعت :

فليت فمى إن شام منى تبسمى فم الطعنة النجلاء تدمى بلامس

ومع ذلك يستوى الصابر والجازع وتأخذ الحياة مجراها .

لا لبيد بأريد مات حزنا وسلت عن شقيقها الخنساء

ذلك شأننا نحن الأحياء فى أمر عواطفنا . أسف مبرح وبؤس . يقع على بؤس، كأنه قد كتب علينا أن ندفن بأيدينا أصدقاءنا ومحل عطفنا وأهل ثقتنا ومعقد آمالنا الواحد تلو الآخر، فتى آخر هذه الحال ! آخرها يوم الخروج من

دار ما سرنا منها قدر ما أحزننا فيها . ولا تحقق فيها خير نرجوه على نسبة
 • ما وقع من شر تنوقعه . ذلك هو
 ما لقمينا من غدر دنيا فلا كنا نت ولا كان أخذها والعطاء
 أيها الصديق :

لم يملك أصدقاؤك من دون الله لك فداء ، إلا الدموع الحارة . لو رأيتهم
 — يا فتحي — أمس حول قبرك لرأيت ثم معنى الحزن العميق يتجسم في
 وجود واجمة عليها غبرة وعيون شاخصة غارقة أحداقها في دموعها وألسن
 معقودة ارتج عليها من هول الموقف . وأى موقف أكبر هولاً من موقف
 صديق ينزل صديقه بيده في قبر سحق يودعه تحت الجنادل فيفارقه الفراق
 الأبدى الذى ليس فيه رجاء . أى موقف أقسى على النفوس من موقف
 الوداع لراحل لا أمل في رجوعه . دفنوك بأيديهم ودفنوا معك لذة الصداقة .
 تلك اللذة التي كان ينهل منها مجالسك ومحادثك ومماشيك . دفنوا
 ذلك الصفاء الذى كان يتجلى على مجالسك . ودّعوك فودعوا معك أعز
 ما عندهم وهو الصداقة . ذلك لم يغن شيئاً إلا ذكرى تبقى لك في قلوب
 أصحابك التي كانت مغرساً طيباً للوفاء . رحمة الله عليك فكم كنت المثل
 الصالح للصديق ، والصديق قليل .

أيها العالم العامل :

لقد كنت في الربيع الماضى على المنابر والصحف ، نكرم ذاتك وتزوج
 مؤلفاتك ونعلن فضلك ، فما دار الحول حتى جئنا ننعى وفاءك وأنت في

الحالين كبير . إن مظاهر الإعتراف بفضلك التى شهدت بنظرك ليست
بأكبر مظاهر الجلال التى قام بها من يبيكونك لمقامك العلمى والعملى .
جاءه القدر المحتوم فنكست الأعلام الخاققة على ربوع هليوبوليس
وسرت فى الناس جميعاً روح أسف هادئة تظهر على وجوههم بسكون
عميق . شأن الناس إذا نزلت بهم مصيبة عامة . كذلك كانت مصيبة مصر
فى نابقتها وقييد العلم والارتقاء فيها حزن فاتر ، لا يشبه حزن أصدقائه الجازعين ،
ولكنه أشمل منه أثراً وأعلى منه مقاماً . لكل امرئ أصدقاء يبيكونه ، وليس
كل عالم يعتبر موته مصيبة عامة .

جىء بمجنازته إلى القاهرة فشيعت من بيت أخيه الأسيف صاحب
السعادة سعد باشا زغلول . شيعت بما يتفق مع مكانته العلمية وآثاره العملية
ومشى فيها كل الرجال الرسميين ورجال الأمة وأهل العلم والأدب فكان
هذا الموكب من أكبر ما وجد فى مصر . ولكن فتحى باشا له هذه
الخصوصية ، أن فضله أشهر من أن تدل عليه حفاوة الناس وآثاره أبين من
أن يكون تشييع العلماء والجنازة برهاناً على أنه من العلم وبيئة العلماء .

كان فتحى باشا حديد الفهم يتوقد ذكاؤه نوراً تضرب به بيننا الأمثال
— بليغ العبارة حتى أنك لو كتبت عنه ما يقول فى مجلسه عن أى موضوع
من الموضوعات لكان ما كتبت درساً من دروس الإنشاء وقطعة من قطع
البيان . فصيح اللسان يتكلم الساعات الطوال ارتجالاً كلاماً متمعاً لا يمل
ولا يمل ، نقاداً لا تفوته فائتة ولا يخذع على نظره الصحيح ، غزير المادة فى

علمه الخاص وفي العام . له ذوق صاف فلم يلهيه الاشتغال بالعلم والتأليف عن
تعرف الجمال فيما يقع عليه نظره من الأشياء كأنه من أهل الفنون الجميلة كما
كان على علمه من أكابر الأدباء . له عقل راجح . عاشرته زماناً غير قليل ، فما
علمت لسانه يسبق علمه ، ولا علمه يسبق عقله .

وأما آثاره العلمية فلا حاجة بها لأن تذكر بعد أن توجت في مجلس
حافل لم يبق في البلاد أحد من أهل العلم إلا شهده . وأما شأنه العملي
فإنه كان في الحكومة واضع المشروعات والمدخل لحل المشكلات ، وكان
بمجموع مزاياه وفواضله أحق الناس بأن يسمى النابغة على التحقيق .
أيها النابغة :

نم في قبرك آمناً مطمئناً فإنك قد فمت بالواجب عليك في خدمة وطنك
وخدمة العلم . نم سعيداً فإن وراءك من أهل بيتك ومن اهتموا بهديك من
يسرون على سننك الاجتماعية وينفذون وصيتك الأخيرة — تلك الوصية
التي أوصيت بها العلماء والفضلاء والوجهاء من قومك ، تلك الوصية التي
أوصيت بها على منبر الجامعة يوم تتويج كتبك فبلغت بها قلوب الناس جميعاً
إذ قلت لهم :

«علموا الأمة ، علموا الأمة علموا الأمة » انهم قد سمعوا ووعوا ، وهم
يعملون كما تقول . فلئن فاتك أيها النابغة العمر الطويل ، فما فاتك المجد الأثيل ،
ولئن قصرت حياتك عن إدراك ثمرة جهادك فإن أهل بيتك سيتممون
عملك . فقم في سلام الله ورحمته . عزى الله قومك على فقدك خير العزاء .

وداع الوزارة

قد يكون اليوم هو آخر عهد الوزارة السعيدية^(١) بالحكم. إن لم يكن هذا هو الحق في الواقع، فهو على الأقل الحق في أمانينا. ليس بأمانينا أن تسقط الوزارة، ولكن ذلك لا يمنع من أن البلاد قد شبت منها ومن أعمالها وتلقّت خبر سقوطها بالارتياح سواء في ذلك خصومها وأنصارها ومن هم في شأنها على الحياد التام. تستغفر المروءة أن يكون قولنا هذا تشفياً في أشخاص الوزراء، فإننا نعد من بينهم كثيراً من أصحابنا ومحل جاذبتنا واحترامنا. نستغفر الرفعة للوزراء أن يكون سقوطهم مصيبة عليهم يألمون لها من جهة ما فيها من قطع المرتبات الكبيرة. كلا. إن وزراءنا يعلمون أن المناصب ضرائب يدفعها الأكفاء وتكاليف يقوم بأعبائها الأصلحون. وأنها تقليد إلى زمن محدود يستعمله الوزير في تنفيذ المبادئ التي يراها صالحة لوق البلاد.

وما هي تخليد يصح اعتبارها مورداً من موارد الرزق، فلا يهم الوزير الشريف من أمر سقوطه إلا الحسرة على عدم اتمام ما يكون قد بدأ فيه من المشروعات النافعة للأمة لا لشخصه، وما يخشى أن يفوت الناس من المنافع إذا لم يخلفه من يستمر على تحقيق مبادئه. ووزراؤنا يعلمون ذلك كله

على الرغم مما شاع عن أحدهم أنه كان يقول حين تكلم معه زملاؤه في أمر
 • الاستقالة : أنا ثابت في مركزي ومحتفظ « بحقوقى » فلا أستقيل مع
 المستقيلين ، كأن الوزارة حق له لا واجب عليه وكأنما هو مستعد لأن
 يشتغل مع كل رئيس بصرف النظر عن اختلاف المشارب أو تباين المبادئ .
 ذلك لا يهم . لكن المهم هو أن يشتغل بأية طريقة والسلام . على الرغم
 من ذلك فإن الواجب علينا في حق وزرائنا الأمثال أن نعتبرهم غير مستأثين
 من سقوط الوزارة سقوطاً كلياً أو بعضياً . فلا يكون هناك أوفى معنى لأن
 يحمل ما نكتبه في هذا الشأن على الاشتفاء أو الشماتة ، فإن كليهما لا يكون
 إلا من الأعداء ولا نحسب منهم إلا معارف وأصدقاء فما يكون قولنا
 إلا وراداً على الوزارة باعتبار أن لها شخصية متميزة عن شخصية أفراد
 الوزراء ولها خطة مرسومة طالما أفضى بعض الوزراء في مجالسهم بأنها خطة
 غير مفيدة لمصلحة البلاد . ولكنهم مع ذلك لم يستقيلوا ! لم يستقيلوا
 لأنهم على ما يقال لا يعرفون في البلاد أكفأ منهم أو بعبارة أقل ادعاءً ،
 لا يظنون أن السلطات ترضى باستيزار الأشخاص الذين هم أكفأ منهم .
 فهم يبقائهم يخدمون البلاد . يخدمونها خدمة سلبية بقطع الطريق على من
 هم أقل منهم كفاءة . ومهما تكن الخدمة السلبية عديمة القيمة ، فإنها مع ذلك
 — على ما يقال — كانت هي وحدها التي تربط النظار ببراكزهم دون
 غيرها من بقية الاعتبارات الشخصية . ومع ذلك فإن الأمة لم يبين عليها
 أنها أقامت وزناً لهذه الخدمة ولا اعترفت بفضل الوزارة ، فهي أسعد ما تكون

أن ترى هذه الوزارة تسقط من أساسها وتحلفها غيرها . كما يكون من حال المرء يرجو من صاحبه الصلاح ، والإصلاح ، ثم يرجو ثم يؤمل ثم يتمنى ثم يقنط بعد ذلك ويأخذه الملل . كذلك ملت الأمة هذه الوزارة .

ألا يكون الحال أن الأمة تحل كل وزارة من الوزارات تفرح لسقوطها من غير أن تتدبر في أمر من يليها ، كأنما هي تفضل التغيير لا لنفع فيه ولكن حباً في التغيير .

قد يكون من ذلك شيء . ولكن الواقع هو أن الوزارة الحالية كانت سيئة الطالع . سيئة الطالع إلى غاية النحس . نصبت في ظروف صعبة محزنة . فكانت بذلك وزارة ضرورة أو وزارة وقتية ، ولكن استعدادها لاعتناق كل المبادئ والسير في كل الخطط والتفاني في الاتفاق مع كل قوى لمصلحة البلاد وتسليم أمرها وأعمالها لكل من يخدم البلاد بصرف النظر عن الفكرة في أى برنامج يجب اتباعه ، والتصريح بأنها تقصر همها على اكتشاف وسائل الإصلاح : كل ذلك أطل بقاءها وثبت مركزها إلى هذا اليوم . ولو كان عمل الوزارة قاصراً على ذلك خلفت على الأمة ريجها ولما ثقل عليها وجودها وأملت استمرارها وملت عشرتها واستقبلت اخبار سقوطها بالدعوات الصالحات لولاة الأمور . ولكن الأمة والسلطين حين التقوا جميعاً إلى تاريخ أربع السنين الماضيات ، رأوا أن مايجرى في البلاد هو غير ما يرضى الجميع . فإن السلطة لم تأمر بالحسوية ولم تأمر بانتشار الرشوة في الإدارات من أقصى البلاد إلى أقصاها . حاشاً أولى الأمر أن

لا يجدوا كل الوجد على إفساد أخلاق الأمة إفساداً يتعذر عليها إصلاحه إلا في زمان بعيد . ومهما يكن من بعد أشخاص وزرائنا المحترمين على مقارفة هذه الآثام أو الرضى بها ، فإن الوزارة دون غيرها هي المسئولة عن كل فساد ويقع في مدتها من الموظفين التابعين لها ومن أعوانها وأنصارها ، ولو افترضت براءتها إلى حد الجهل المطبق بما يقع من الحوادث في البلاد . فإن رأى العام والسلطة كليهما ليست محكمة من المحاكم النظامية التي تصوغ الآثام صيغاً محدودة وتطلب على كل منها دليلاً قضائياً خارجاً عما جاء القاضى بطريق علمه الذاتي . كلا إنهما ليسا كذلك ، ولكن كليهما يحكم على الوزارة بنتائج الرقى أو الانحطاط الذي وقع في البلاد مدة ولايتها الأحكام . فإذا خاب في الوزارة أمل السلطة العليا التي تنصبها ، فلم تستطع تنفيذ ميوها الشريفة ومقاصدها الوطنية ، ولم تستطع إعلاء شأن الحكومة وتحرير مشروعاتها القانونية في الجمعية التشريعية انعدمت منفعة الوزارة وكان سقوطها واجباً .

وإذا انقطعت آمال رأى العام من الوزارة في تأييد كلمة الحق والعدل ونشر راية الأمن على رؤوس الأفراد وحماية مصالح الأمة ، أو رأى رأى العام أن عهد الوزارة مملوء بالجرائم على الأعراض والأنفس والأموال . واتسع ميدان الرشوة للحكام وملاءم التفرغ والحسوية . إذا رأى رأى العام ذلك ، ثقل عليه احتمال الوزارة وصفق لسقوطها تصفيقاً .

كليات طبيعية يلزمنا الواجب أن نذكرها . نذكرها على مضض ، ولكن

الحق أحق أن يقال ويتبع . وإن كان احترام الوزارة والأسف على ما فرطت يأخذ منا كل مأخذ على أن الإدارة في مصر صارت إلى أبعد مما نشير إليه . وشكوى الناس في مجالسهم الخصوصية أدهى من ذلك وأمر .

لا يهمننا أن تلى الحكم بعد سقوط الوزارة الحاضرة وزارة زيد أو وزارة عمرو . ولكن الذى يههم البلاد أن تعتقد بالمثل الحسى أن السلطة العليا لا تسمح بالسكوت على تأخير البلاد فى حالها الأخلاقى ولا على أن تكون الوزارة كل عملها — كما يقال — اكتشاف وسائل الإصلاح وأن تبقى الوزارة هذه المدة الطويلة دون أن يكون لها مشروع واحد ينسب إليها دون سواها ، إلا مشروع المؤامرات أو اكتشاف المؤامرات !

يهمننا أن تأتى وزارة مطلوبة للولاية لا طالبة لها ، ذات مركز أعلى من مركز اكتشاف وسائل الإصلاح . وزارة تؤيد حرية الشعب لا تقصص ريشها ولا تطفنها فى قلبها . تعمل لمصلحة المحكومين ، ذات برنامج معين وخطط معروفة . تأخذها العزة بالاستقالة قبل أن تغلب على أمرها وتعين الأفراد والجاميع على استكمال حظوظها من الرقى المدنى بهدوء وسكينة فلا ينجم عن أعمالها مؤامرات صادقة أو كاذبة ولا تحتاج فى حمايتها إلى قوانين استثنائية تذهب بمظاهر الحرية وتشوه جمال الإصلاح الذى يزاوله المصلحون . وزارة ذات روح عامة مؤتلفة الأجزاء متضامنه الوزراء . لا يسعى أحدهم بالآخر إلى السلطة ولا يصك بعضهم صدره للسلطة ، لينفرد باتيان عمل من وراء الآخرين . وزراء لا يقبل أحدهم الوزارة إلا بعد التدبر والحساب

وبعد أن يعرف شركاءه في المسئولية ويرضى بهم . فإن الوزير هو ذلك الذى يعرف أن يقيس قواه لحل أعباء الأمة على كاهله لا الذى سرعان ما يجرى الطمع المتواضع إلى أن يقدر ما يربحه فى المنصب .

إلا أن الوزارة غرم لا غنم . أنها مفقدة الصديق ومضرب العدو وكد الضمير وخسارة الاسم . فمن قبل الوزارة لمال يكسبه ، فما أقل حسابه ، أو لجاه يحصله ، فقد فات زمن الجاه . ومن قبل الوزارة وأعد لها عدتها من الكفاءة والاستقلال مجد مخلد فى خدمة أوطانه ، فذلك وحده هو الوزير يحضى ماله ووقته وحرريته ولذته لمنفعة قومه وبلاده .

على أننا من جهة أخرى يعز علينا أن وزارة سعيد باشا التى استقبلناها بقليل من التفاؤل وكثير من الجاذبية ، لم تنجح فى أداء وظيفتها فلم توفق إلى إرضاء مصلحة البلاد ولا إلى إرضاء الأمة ولا السلطة التى نصبها . نأسف لذلك لأن الوزارة مؤلفة من أبناء مصر وليس فشلهم فى السياسة يشرفنا كثيراً ، ونحن أمة ناهضة كل مثل من أمثلة الفشل يتخذ حجة علينا لا حجة لنا . فلسنا من هذه الجهة كغيرنا من الأمم الراقية التى تعد من يصلح فيها للوزارة بالمئين لا بالعشرات . نأسف لذلك ويرضينا أن نودع الوزارة الحاضرة لنستقبل الوزارة الآتية بالآمال السكار . فإن كانت الوزارة الفهمية فأهلاً وسهلاً وحباً وكرامة . فإن ذلك الشيخ المحترم يكاد يكون فى مصر الرجل الوحيد الذى لا فائدة لى من الوزارة . فلا يكون قبوله لها إلا لحض نفع البلاد . ولقد أظهر

مصطفى فهمى باشا فى المفاوضات على ما يتغافله الثقاة من رفعة الأخلاق
 وعلو المكانة ما يجعل الأمة تستبشر خيراً بوزارته وما يجعل السلطة ترى
 نهائياً أنه هو الرجل الأول اللازم للحالة الحاضرة ، والقادر بنفوذه الأدبى
 على إصلاح ما فسد من أحوال البلاد .

تأبين أحمد فتحى زغلول باشا

أيها السادة: إن أحمد فتحى باشا زغلول هو أصغر أنجال المرحوم الشيخ ابراهيم زغلول من أعيان إيبانه . ولد فى تلك القرية فى ٤ ربيع الأول سنة ١٢٧٩ هـ . مات أبوه رحمه الله إذ كان رضيعاً وكان شقيقه سعد زغلول فطيماً خلفهما أبوهما فى حضانة والدتهما التى هى إحدى عوائل عائلة بركات الشهيرة بالغربية، وكانت وقت وفاة زوجها لا يتجاوز عمرها العشرين . فقامت على ولديها ووقفت نفسها على تربيتهما تحت إشراف أخيهما الكبير لأبيهما المرحوم الشناوى أفندى زغلول الذى عنى بتعليمهما على أحسن ما تعلم به أبناء الأعيان . تعلم فتح الله الصغير فى كتاب البلد ثم فى مدرسة رشيد ثم المدرسة التجهيزية ثم فى مدرسة الألسن ، فاتفق أن زارها المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية ، فأعجب بذلك الشاب فتح الله صبرى وأعطاه اسم أحمد ، ونحت من « فتح الله » فتحى ، وأصدر أمراً رسمياً إلى المدرسة بتسميته أحمد فتحى وبأن يرد إليه ما دفع من المصاريف وباعتباره طالباً مجانياً . فلما كانت ١٨٨٤ أرسلته نظارة المعارف إلى فرنسا لدرس الحقوق فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة ١٨٨٧ . وظف بقلم قضايا الحكومة ثم رئيساً لنيابة أسيوط ثم رئيساً لنيابة اسكندرية ثم مفقشاً بلجنة

المراقبة فرئيساً لمحكمة الزقازيق ثم رئيساً لمحكمة مصر ثم وكيلاً لنظارة الحقانية ، وظيفته الأخيرة التي مات وهو قائم بها .

كان فتحي باشا كما سمعتم اليوم وقبل اليوم وكما قرأتم في التقارير الرسمية مثال الموظف الفاني في الاشتغال بأداء واجباته القائم بعمله وعمل غيره أحياناً ولم يمنعه ذلك من أن يكون مترجماً متمعاً أميناً ومؤلفاً كبيراً . عن هذا الوصف ومن هذه الجهة وقفت أمامكم أو بن فقيده العلم والعلماء .

أيها السادة :

إن شدة الذكاء وقوة النفس وحسن الإخلاص ، تلك الصفات التي ظهرت آثارها على فتحي باشا منذ شبابه الغض راجعاً معظمها إلى التأثير الوراثي من أبويه وعلى الأخص والدته التي أفاضت عليه من صفاتها بما يفيض الأصل ، وما غرست من المبادئ الصالحة مما جعل لفتحي شخصية ممتازة منذ صباه .

لا يأخذكم العجب من قولي فإن من أمهاتنا نحن القرويين ، منهم مع بساطة في المدارك العقلية وبعد عن العلوم والمعارف ، على جانب عظيم من الذكاء الفطري ورفعة الأخلاق وعزة النفس وذوق سليم في الحكم وطيبة وتقوى في المعاملات . ينقلن هذه الصفات لأبنائهن بحكم قانون الانتقال الوراثي ، فتكون لهم رأس مال في الحياة العملية . ولولا هذه الصفات لهلك القرويون غير المتعلمين بما هم فيه من جهل عميق وما عانوا من استبداد طويل . ولكن هذه الصفات الأولية قد قامت في نجاحهم مقام المعارف

زمنًا طويلا ولا يزال الإتكال عليها وحدها يؤدي إلى الآن نتائج المتواضعة في بلادنا . فإذا جاءت العلوم والمعارف على هذه الصفات الأولية، ظهر النبوغ قلة وكثرة تبعاً لقوة الاستعداد أى لقوة تلك الصفات الوراثية .

فللأمهات القرويات أن يقبلن أيضاً شكر الجيل الحاضر . وعلمنا أن نعترف علناً ومن غير تردد بما للأمهات من الأهمية العظمى من حيث توريث البنين والقيام على تربيتهم الأولى . وأمامنا المثل الحسى أن والدة فتحي باشا ينسب إليها الفضل الأكبر في أن أخرجت لمصرنا نابغتين : نابغة نرجولة العمر الطويل . ونابغة فقدناه آسفين . فقدناه وتقديم اليوم للتاريخ منه صورة هي أقوم صور نوابغنا حجة لحسن الاستعداد وعلو الكفاءة العلمية والعملية جميعاً .

إن الصفات الأولية لفتحي من شدة الذكاء وقوة النفس وحدة المشاعر هن أساس نبوغه . كان يحمل نفساً على قوتها الهائلة ، رقيقة للمشاعر قلقة لا تستقر أو تبلغ من خدمة العلم منهاها . هيات أن تبقى طويلاً أمثال هذه النفس في البيئات التي لا تلائم بقاءها ونجاحها . وهيات أن تبلغ منى . كلما تقدمت اتسع أمامها أفق الأغراض وكلما انقضى سبب جاءها سبب جديد . تعلم فتحي فصادفت القواعد العلمية من عقله مقاماً رجباً وقرت فيه أصولها . ووجدت منه نفساً طُلعة قوية في مركزها ميالة للإنتشار في مظاهرها الخارجية يناديه صوتها الخفي : أن وف حق العلم . وأت زكاة النبوغ .

فأقدم منذ حادثة سنه على نشر العلم إجابة لداعى الضمير . أقدم على هذا المركب الخشن وكان الواجب عليه أن يقدم لأنه استكمل عدة الإقدام :
 ذكاء مضى وعقل عاصم وعلم هاد ولسان غضب ذلق غواص على موضع الحجة وقلم سيال ومركز نبيل ! كيف لا يكون مقداماً من جمع بين كل هذه الأسباب ؟

لا أكاد ابرى فتحي من الوقوع فى حيرة اختيار الطريقة التى يجب عليه اتباعها لخدمة العلم فى مصر : التأليف أو الترجمة وأيهما أنفع . وإذا كانت الترجمة فعلى أى نوع يقع الاختيار ؟ حيرة لا بد منها لشاب خارج من المدرسة تتضرم بين ضلوعه نار الشوق إلى مجد الوطن العلمى ، خلو من التجارب لا يملك إلا كفاءته العالمية .

نظر فتحي نظرة صادقة إلى حال الأمة المصرية وحكومتها فرأى أننا أخرج ما نكون إلى معرفة المثل الأعلى الذى نبغى الوصول إليه من نظاماتنا السياسية والاجتماعية ، حتى تتحد أطماعنا الوطنية على طريقة عامة واضحة :
 [ورأى فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلميون هى نقل العلم إلى أوطانهم بالترجمة . إن هذه الطريقة كانت هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان]

هذا النظر المزدوج كان رائد فتحي باشا فى ترجمته منذ خرج من المدرسة إلى أن مات فإنه فى سنة ١٨٨٨ يترجم (العقد الاجتماعى) لجان جاك روسو فلم يتمه . ولكنه ترجم بعد ذلك « أصول الشرائع » لبنتام .

و « خواطر وسوانح في الإسلام » للكونت هنري دي كلتزي (سرتقدم
 الانجليز السكسونيين) لاديمون ديمولان و (روح الاجتماع) و (سرتطور
 الأمم) لجوستاف لوبون . و (خطاب مصطفى فاضل باشا) نشر ذلك من
 مترجماته وله فوق ذلك (جوامع الكلم) لجوستاف لوبون . وقد وزع عليكم
 الليلة . وكتاب بورجار في الاقتصاد السياسي . و (تمدن العرب) لجوستاف
 لوبون و (جمهورية افلاطون) و (الفرد ضد المملكة) لسبنسر . وكلها
 لم يتم تعريبها . أما مؤلفاته المنشورة فهي كتاب المحاماة ورسالة في التزوير
 وشرح للقانون المدني وقد ألف أخيراً كتاباً « في التربية العامة » كنت
 أحلم أنه قد تم ولكنه لم يطبع .

قرأت مترجماته المنشورة . وتصفحت من غير المنشورة . وأستطيع بعد
 ذلك أن أقول من غير تردد إن فتحى كما كان نابغة في الفقه كذلك
 كان نابغة في الترجمة يمسك الكتاب يقرأه أولاً ثم يدخل بنظره الحاد في
 طيات نفس الكاتب فيظهر أسرارها بقلمه العربي المبين . ومن التراجم
 ما يترجم الألفاظ تحمل معانيها خالية من روح الكاتب وحرارته فلا يكون
 لها التأثير المطلوب إلا مترجمات فتحى فإنها تقرأ فيها المعاني والأغراض
 كأنك تقرأ كاتبها من غير فرق .

لفتحى باشا شخصية تامة ممتازة في طريقته وفي أسلوبه البياني .
 أما نحوه في الترجمة فليس هو الالتزام الحرفي للأصل ولا مجافاة
 الأصل . ولكن نحوه بين ذلك وسط مرضى .

أما أسلوبه فهو عربي خالص لا يعنى فيه بفضلة لزخرف المحسنات اللفظية ، ولكنه مع ذلك متين الرصف ظاهر الرشاقة جذاب جداً لم يكن فتحى باشا يترجم ليرجم . ولا طلباً للشهرة أو المال من وراء التعريب . فانهما ليس سبيلهما فى بلادنا العلم والكتابة وكان حسبه شهرة مناصبه العالية وكفاءته التى ما كانت يوماً واحداً موضعاً للشك من أحد سواء فى ذلك أصدقاؤه وحساده ، عارفوه وغير عارفيه . ولكننا إذا جمعنا مترجماته دلنا مجموعها على أن فتحى كان له غرض ثابت يرمى إليه من وراء نشر هذه الكتب

غرضه نشر مبادئ الحرية . حرية الفرد . وحرية الأمة . وتنبيه أطماع الأفراد والأمة جميعاً إلى اتخاذ مثل أعلى قبله لهم فى أطماعهم الوطنية . منذ سنة ١٨٨٨ كان يرى الأمة تتقلب فى أغراض أحياناً متعاكسة ودائماً مبهمة فكان يسيئه هذا النظر ويود لو أن الشعور الوطنى الذى كان وقتئذ فى حذر مستمر — يولى وجهه قبل الاستقلال على نحو منتج . كان يود لو يدركون أن إبهام الفرض وعدم إدراكه بوضوح ، يجعله مستحيل المثال . لذلك أراد أن يقدم للجمهور . (عقد الاجتماع) لروسو حتى يتبين الجمهور حق الفرد وحق الأمة . وما يجب أن يكون لها من السلطان . وللأسف لم يظهر هذا الكتاب مع أنه بلغ من ترجمته مبلغاً كبيراً . ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام فى أصول الحقوق والواجبات . حتى جاء الزمن الأخير وظهر الشعور الوطنى بمظهر جميل ولكن لا يزال فى مقاصده

بعض اللبس حتى فيما هو مكتوب من المبادئ في الصحف ، وما الصحف إلا ترجمان الرأى العام . ولعل فتحنى باشا أمام هذه المشاهدة أشفق على حرية الأفراد وتربية الأمة من الميل الظاهر إلى ما يشبه الاشتراكية . فإن الناس لم يقصدوا فى طلبتهم على حقوق الأفراد من الحرية وحق الشعب من السلطة ، بل أخذوا مع ذلك كله يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل شئ . ومهما كان فى أساليب هذه المطالب من الانتقاد الضمنى ، إلا أن مثل هذه الحركة من شأنها أن تجعل الحكومة هى كل شئ والفرد لاشئ . الاشتراكية قد تكون معقولة إذا كان للأفراد شأن فى تنصيب الحكومة وإلا فإنما هى اشتراكية معكوسة النتائج . فأخذ فتحنى باشا عن بعد يهدى الأفراد إلى وجوب الاستمسك بشخصيتهم ويبين لهم أن الترية الشخصية هى التى كانت (سر تقدم الانكليز السكسونيين) . يطالب إلى المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء وأن لا ينفو شخصيتهم فيفنى وجودهم . واستطردا فى هذا النظر تصدى إلى ترجمة (الفرد ضد المملكة) وروح الاجتماع وسر تطور الأمم . كل ذلك ليبقى فى الجمهور الأسس العلمية للرقى حتى يطبق الناس حالم على هذه الأصول فينتفعوا بتجارب الأمم .

أيها السادة :

ان التوفيق بين منتخبات فتحنى باشا للترجمة ينتج فوق ما قدمنا أنه كان يعتنق مذهب الحريين سواء كان ذلك فى الترية والتعليم أو فى الأصول الاجتماعية والسياسية بل الاقتصادية أيضاً . لأنه لو كان اشتراكياً

في الاقتصاد لما عمد إلى ترجمة بورجار بل كان عمد إلى ترجمة أحد الاقتصاديين الاشتراكيين الظاهرين بالاشتراكية .

ولو شئنا أن نبين عقائد فتحي باشا من منتجاته ومن أحاديثه لضاق بنا المقام ، ولكني أكتفي الآن بالإشارة إلى أن بين اختيار فتحي لتلك المؤلفات وبين مذهبه الحرّي في محاولة الإصلاح الاجتماعي والسياسي نسباً متصلاً جدد الاتصال .

حسبي الإشارة إلى ذلك وإلى أن فتحي باشا كان ذا مبادئ ثابتة وطرائق معينة في كل شيء . فكما أنه ابتدأ في خدمة العلم الابتداء الطبيعي وهو نقل العلم إلى البلاد ، كذلك كان يرى أن البدء في الارتقاء الاجتماعي والسياسي لا يكون بأخذ ثمرات آخر تطور للمبادئ الاجتماعية والسياسية في الأمم التي تمدنت من قبلنا ؛ ولا شك في أن ادخال المبادئ الاشتراكية في آخر تطورها الحاضر على أمة ناهضة من عقول الاستبداد نتيجة اضطراب خطر قد يكون ضرره أكثر من نفعه .

من ذلك نأخذ أن فتحي باشا كان رجل ارتقاء لا رجل ثورة . إنه كان يكره الثورة ، يكرهها بكل مظاهرها حتى الفكرية منها . فكما إنه كان يرى أن خير القوانين ليس هو القانون الحسن في ذاته ، ولكنه القانون الذي يحتمل الشعب تطبيقه ، كذلك كان يرى أن خير المبادئ الاجتماعية والسياسية هو ما كان بينه وبين طبائع الشعب وعاداته نسب ، تكمل ما فيها من نقص وتقوم ما بها من اعوجاج .

كان فتحى يسترشد بهذه الآراء الحرة العريقة فى الحرية . فاذا لم يكن نشرها ليتفق مع مركزه فى الحكومة ، فلقد نشرها بالترجمة والعقل ليرضى دواعى ضميره وليثابر على تربية قومه تربية صالحة على قواعد ثابتة مع معرفة الحقوق والواجبات . فليس فقيدنا رحمه الله من أرباب المناصب . بل هو على ذلك من أرباب المذاهب . ومن هو كذلك ، من شأنه أن يكون شقيماً بغرضين معذباً ضعفين . يكاد لا يكون له من وقته شيء . فهو يقسم بين الأعمال الرسمية الشاقة وبين خدمة العلم ، يعمل لها بالتأليف والترجمة شطرا الليل وأحياناً طول الليل ومدة العطلة . فاذا لامه فى ذلك أصدقاؤه هز كتفه هزة فيلسوف لا يبالى مات اليوم أو مات غدا .

نعم كان المؤلف فتحى يعتقد إن الحياة تقدر بما يتم فيها من العمل الصالح لا بعدد السنين .

يكاد كلامى يلقى فى الأذهان من فتحى باشا صورة عالم استغرقته أغراضه وشغلاته همومه فزهده فى الجمعية وفرط فى القيام بالاصطلاحات المدنية . كلا . إن فتحى باشا على ذلك كان مترفاً فى عيشته متأثراً فى مظاهرها المختلفة . كثير الاختلاط لانقوته عيادة مريض من أصدقائه ولا رد لزيارة ولا مؤاساة معارفه فى أحزائهم . كذلك لا يئقبض عزمه عن شهود حفلة أنس . ولا تلوى به همومه ومشاغله عن الاعتناء باقتناء التحف والطرف وتعرف أوضاع الجبال حيث كان . رحمه الله . كان على علمه العميق ومنزلته العالية رجلاً غاية فى الوداعة والظرف .

من ذلك يظهر لى أن فتحنى باشا كان يعتقد الحياة الفردية كلا واحدا من حقه أن يكون متعادلا فى جميع مظاهره وأن اعتدال السلوك لا يتم إلا بهذا التعادل فكما يجب على المرأ أن يخدم عقله كذلك يجب عليه أن يخدم مشاعره ، حتى لا تعطل ملكة من الملكات تضحية للذكة أخرى . ولا شك فى أن خير قاعدة تنتج المثل الأعلى للرجل الكامل بمعنى الكلمة هى قاعده تنمية ملكات الإنسان وقواه بنسبة واحدة .

كذلك كان فتحنى باشا . وعلى هذا كنا نراه فى شئونه . غير أن الاستثناء كان يلحق لديه هذه القاعدة أيضاً . فإنه يظهر لنا من جهة أخرى أنه كان يضحى قواه الجثمانية فى سبيل شهوته العلمية .

وهذا المثل مع الأسف هو وقلة الحرص على المال كأنهما أمران عامان فى كثير من أبطال العلم وخدمة الأوطان .

عفواً . أيها السادة . ليس فتحنى فى عداد الموتى الذين يؤنبون بقوله واحدة تردد لكل منهم على السواء : كان وكان . . . وعليه الرحمة والرضوان . ان فتحنى ليس ملكاً لأهله وأصدقائه بل هو ملك التاريخ وبهذا العنوان يجب علينا دراسته . إنه صورة كبرى من أكبر صور النبوغ المصرى بروزاً وأولاهم بالغناية والدرس انه رجل كبير . كبير فى عقله وفى عواطفه بل فى اطماعه أيضاً . وما كان يبين عليه أن اقتناء المال داخل فى برنامج اطماعه . أقول وليس هو فى هذا المعنى استثناء من عظماء الرجال أمثاله . أولئك الذين ماتوا ولا أصفر ولا أبيض ، كأنهم الأنبياء لا يورثون .

فان لم يتركوا تراثاً فقد تركوا مجداً خالداً .

نعم إن اطماع فتحى باشا كانت كبيرة متناسبة مع كفاءته وثقته بنفسه ولكنها لم تكن من الأطماع الشخصية فى شىء . إنه كان يألم لما نحن فيه ويرجو أن يكون له من السلطة ما يسهل لقومه سبيل التقدم إلى الأمام — قد تكون هذه العلة هى العذر العام الذى ينتحله كل المغرمين بالمناصب العالية . ولكن فتحى ليس من هؤلاء لأنه كان ينفذ الخطة التى رسمها لمشاغله العمومية ، فأخذ يسهل التقدم بقلمه ومن الطبيعى أن يرجو أن يسهله بعمله أيضاً فيكون بذلك قد جمع بين سببى النفع ، لا كصديقه روسو الذى قال لو كنت شارعا أو أميراً لاعتضت عن الكتابة فى السياسة بتحقيق ما أقرر من المبادئ . على أنى يجب على فى هذا الموقف أن أسارع إلى التصريح بأن فتحى لم يقدم بين يدى اطماعه إلا كفاءته . أما شخصيته واستقلاله فى رأى فلا دخل لهما فى هذه الصفقة . بل ربما كان حجر عثرة فى سبيل ارتقائه . على أن فتحى باشا مهما كان محسود القدرة ، فإنه كان دائماً عمدة الحكومة فى كثير من المشروعات الدقيقة التى تحتاج إلى مفاوضات بين جهات مختلفة وموضع الاستشارة عن نظارته وغير نظارته فى وضع القوانين . كما تشهد به الألسن الرسمية والتقارير الرسمية .

أيها السادة — كنا نكرم فتحى باشا فى نحو هذا الأوان من العام الماضى وتتوج مؤلفاته . وهانحن أولاء جئنا اليوم نؤبنه ونتأسف على وفاته . فما أقل هذا الوجود حرصاً على الرجال النافعين !

أيها السادة — ان صورة فتحي باشا الذي اشترك في رسمها جميع خطباء

• هذه الحفلة الممثلين للمعاني والطبقات المتباينة ، صورة ندخرها عند الزمان
• على أنها طليعة النهضة العلمية وأثر من آثار المجد المصرى الفخيم . ولتكون
قدوة للنابعين من أبنائنا على مر الزمان . فاللهم لعبدك الأمين فى خدمة العلم
رحمة ، ولبلاده عزاء ، إنك أنت السميع المجيب .

الحرب

وقع ما كان يحشاءه العالم بأسره . وعم الخطب ولم يبق بعد سبيل إلى السلام . فلم يكن لينتظر أن الخلاف الحلى الذى قام بين النمسا والصرب يصل إلى هذه النتيجة السوداء على العالم ، وهنا مورد المثل المشهور . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

اليوم وإلا أبداً ، وفي هذا الحادث وإلا فلا ، تلهب أوروبا شرارة واحدة ويعم العالم بأسره الضرر البليغ بحجة أن صربيا والنمسا لم تتفقا على الوسائل القضائية لحكمة فى جنائية !!

عجزت السياسة والمفاوضات السياسية والوساطات الملوكية والإمبراطورية عن تأييد السلم وحقن الدماء وحماية مصالح الناس ، وانفرد الشر بالحكم فى أوروبا إذ نفخ فى صورته ففرغت لدعوته الملايين من الناس انقلبوا عن صورهم المدنية ، فأصموا آذانهم عن دعوة الإخاء الإنسانى ، واستدبروا نهائياً مبادئ المحبة والغفران والسلام وغشى الغضب أبصارهم فلم يعودوا يفكرون فى الخسارة العظمى التى يجنيها الحاربون من وراء الحرب . يكتسبونها جميعاً سواء فيهم الغالب والمغلوب . واستهانوا بالإضرار التى

الجريدة فى ٢ من أغسطس سنة ١٩١٤ العدد ن ٢٢٥١ . ومى الحرب العالمية

الأولى

تلحق العالم بأسره من وراء هذه الحركة التي فيها ليس من البركة شيء .
 تلك حرب ولا كالحروب يجب أن يشفق كل من في العالم من جرائمها
 على المحاربين وغير المحاربين والمضطهدين بأسبابها ونتائجها والغافلين فإن
 حروب هذا القرن ليست كحروب القرون الأولى .

فإن المدنية الحاضرة قد جعلت الكرة الأرضية أشبه بالوطن الواحد في
 المنافع الاقتصادية التي هي أساس العمران بل علة الحياة . أجزاءه متضامنة
 في الخير والشر . أقفلت أسواق أوروبا وميزان الحركة الاقتصادية العامة
 معلق بين أصابعها فأخلت بالموازنة في كل شيء حتى في أسعار الأقوات في كل
 البلاد . وأصبحنا في مصر ونحن بمرکزنا الاستثنائي بعداء عن هذه الحركة
 الحربية . أصبحنا في أول يوم من إعلان ألمانيا الحرب نشعر تماماً بالرجات
 الشديدة التي حصلت في سوقنا المالية بل في أبعد الأسواق علماً بأن في
 أوروبا حرباً . وعلى هذا القياس كل أنحاء الكرة الأرضية . أفلا يعلم
 الذين تعلن الحرب بكلمة من أفواههم مقدار المسؤولية التي يحملونها بهذه
 الكلمة الكبرى التي تسفك الملايين من دماء الأبرياء . الأبرياء بالمعنى
 الصحيح الذين يمثلون بقول القائل :

لم أكن من جناتها علم الله وأنى حرها اليوم صالى

يقاد أحدهم من الدار إلى النار لا دفاعاً عن وطن مهدد ولكن إرضاء
 لشهوات العظماء . إرضاء لرؤساء الأحزاب . إرضاء لكلمات ضخمة محجوة

• برن رنين (آمون) وليس في بطنها من الحقيقة شيء كبير ولا صغير. رحم الله
جوريس أول قاتل لهذه الحرب وأول ضحية من الضحايا الذاهبة اليوم وغداً
في سبيل الحق والسلام.

يا الله من مسئولية هذه الحرب عديمة المثال! كيف يستطيع رجل أو
جماعة احتمالها؟ لا أحد. لأنها إذا أمكن تبريرها كيف يمكن تبرير جرائمها
وجرائمها. علم ذلك إمبراطور ألمانيا فأخذ يتنصل من مسئوليتها ولبقيها على
عائق روسيا وأخذت المصادر الألمانية تعلن للعالم أن روسيا هي التي يجب
أن تحتمل مسئولية توسيع ميدان النار عن النطاق الذي كانت محدودة به.
ونن نعدم غداً إعلاناً من روسيا يلقى التبعة على ألمانيا وربما قامت
الحرب وخربت ما قدرت على تخريبه من العالم ووضعت أوزارها ولا تجد
في الممالك من تعترف بأنها التي أذكت نارها واحتملت مسئولية نتائجها.
ومهما كانت المسئولية فوق كل طوق، ومهما كانت النتيجة على كل حال
أسوأ ما يكون، فمن الأسف أن كل ما كان، منطبقاً على طبائع
الإنسان. وما كان للإنسان أن يخرج عن طباعه العامة. وكما أن أوروبا
تقلبت في نعمة العز والسلام. كذلك من الطبيعي أن تتمرغ في جحيم
الارزاء والاكدار. وكلا الحالين من صنعة يديها: جنتها ونارها، سلامها
وحربها، إذ إن الإنسان لا يصبر على حال واحدة. قتل الإنسان
ما أكرهه!

هذا وإن لنا في مصرنا مصالح تجب علينا رعايتها في هذه الظروف

الصعبة. نحن على الحياد بالضرورة وسنظل كذلك مهما اتسعت دائرة الحرب عما هي عليه الآن. ولكن الحيلة في خفارة الثغور والحدود على قدر الحياد ضرورية جداً. فإن التجارب دلت على أن استبعاد وقوع السوء غير مبعد له بالفعل، ولا هو يعتبر وقاية منه. فلا نحن ولا غيرنا نستطيع أن يعلم الآن بالضبط عند أى الحدود يقف هذا الحريق الأرضى العام.

أما من الجهة السياسية فإن مركز مصر الاستثنائى يحتم على ولاية الأمور فيها اتباع تقاليدنا الحديثة فى الحياد التام مهما كانت الظروف، وقد جربنا الثمرات الطيبة التى جنتها مصر من حيادها.

وأما الجهة الاقتصادية فقد علمنا أن الوزارة تشغل بالوسائل اللازمة لوقايتها، والواجب هو العمل لمنع تصدير الذهب ومنع تصدير مواد القوات منعاً نهائياً.

لسنا ندرى إلى أى وقت يطول عمر الحرب. ولقد يظن أن الاستعداد السابق وتلاحق المحاربين فى الحدود من شأنهما أن يجعلا مدة الحرب قصيرة نوعاً، ولكنه ليس بعيداً أن تطول أشهراً. ولقد يظن المتفائلون أن انكساراً تكون على الحياد ويرجعون أن حيادها وحياد إيطاليا فيها بريق الأمل فى تقصير مدة الحرب، ومقدمة إلى أن انكساراً تتوسط بين المتحاربين. يقولون ذلك على الرغم من أن سفير انكلترا قد أكد لرئيس جمهورية فرنسا تعضيد دولته لفرنسا وفرنسا داخله غمار الحرب لا محالة. على أن

اشتباك النمسا وروسيا وألمانيا وفرنسا في حرب واحدة كلها تدخل إلى ساحاتها
بملايين العساكر والبنادق والمدافع البرية والعمارات البحرية، كفييل بالخطر
العام على العالم أجمع .

١	ألمانيا	٢٠
٢	فرنسا	١٨
٣	روسيا	١٥
٤	النمسا	١٢
٥	إيطاليا	١٠
٦	البرتغال	٨
٧	البحر	٦
٨	البحر	٤
٩	البحر	٣
١٠	البحر	٢
١١	البحر	١
١٢	البحر	١
١٣	البحر	١
١٤	البحر	١
١٥	البحر	١
١٦	البحر	١
١٧	البحر	١
١٨	البحر	١
١٩	البحر	١
٢٠	البحر	١

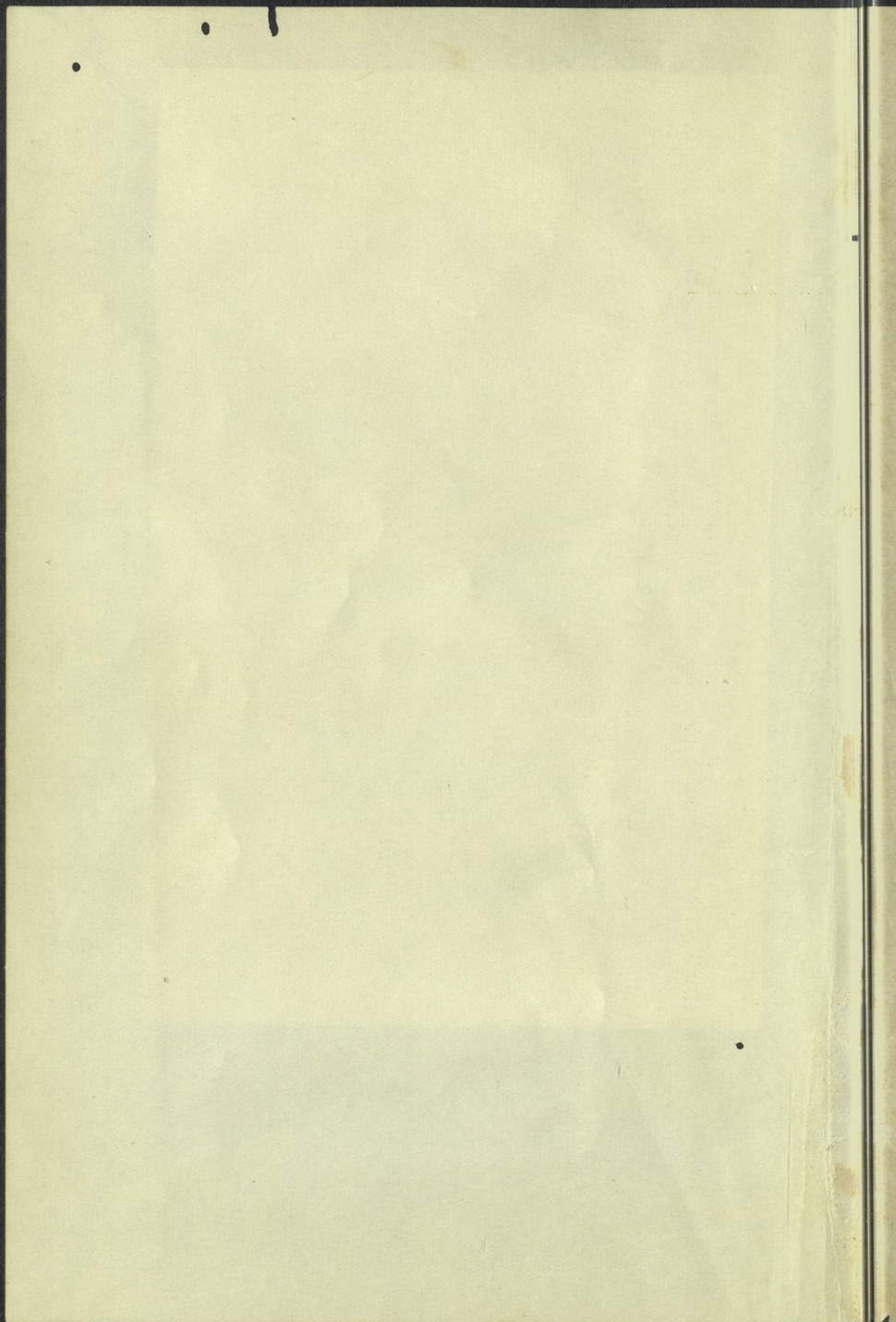
فهرس

صفحة		صفحة	
٦٨	المصرية	٣	مقدمة
٧٢	آمالنا	٧	القدوة الحسنى
٧٧	التقليد	١٨	آثار الجمال وجمال الآثار
٨١	سر تطور الأمم	٢٥	ربيع الحياة
٨٤	الحرية الشخصية	٢٧	جنى القطن
٩٣	خبز السجون	٣٠	أول العام
٩٦	من أجل ذلك نطلب الدستور	٣٢	الرجل السعيد
٩٩	حقوق الأمة	٣٦	الرجل الصريح
١٠٣	الكفاءة الاقتصادية	٣٨	زهر الربيع
١٠٧	النظام الاقتصادي	٤١	الصدقة
١١٢	وفاة فتحي زغلول باشا	٤٦	سلطة الأمة
١١٦	وداع الوزارة	٥١	في سبيل الارتقاء
١٢٣	تأبين أحمد فتحي زغلول باشا	٥٥	الحرية
١٣٥	الحرب	٦١	تضامننا
		٦٥	مصريتنا

65 Missing

طبعة أولى

١٩٤٦/٣/١/١٦٥٠



DATE DUE

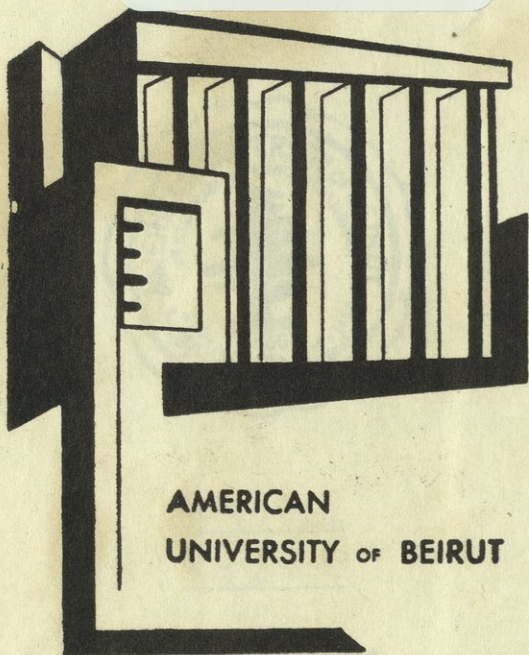


السيد ، احمد لطفى
تأملات في الفلسفة والادب والسياسة و

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039223



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

892.78
S275tm A
C.1